



أوقات عصية



الهيئة المصرية
للعامة للكتاب

الفصل الأول

في مدينة كوكتاون بانجلترا ، وفي حجرة الدرس
وهي حجرة مربعة الشكل قبيحة المنظر ، جلس
عشرون من التلاميذ والتلميذات - صامتين -
يستمعون للسيد « جرادجريند » وهو يحدث معلمهم
قائلا :

- أريد حقائق مادية ، علم هؤلاء الأولاد والبنات
الحقائق العلمية فقط يا سيدى ، لقد ربيت أولادى على
الحقائق وأريدك أن تربى هؤلاء الأطفال على الحقائق ،
فلا شئ أنفع لهم من الحقائق ..

هكذا كان يتحدث السيد « جرادجريند » ، رجل

الأعمال المعروف ومالك هذه المدرسة الصغيرة بينما وقف الى جانبه شاب أنيق مهذب ، لم يكن - حتى هذه اللحظة - قد شارك في الحديث .

وكان السيد جراد جريند قد بنى تلك المدرسة وجعلها أشبه ما تكون بتكوينه الجسماني مربع الشكل !! فقد كان هو مربع الجسم له رأس أصلع مربع الشكل وأصابع غليظة مربعة الشكل أيضا أما عيناه فكانتا أشبه ببثرين مربعي الشكل مظلمين حفرا في مقدمة رأسه الأصلع ، الذي فقد معظم شعره وبدا هذا الرأس الأصفر وكأنه على وشك الانفجار ، ربما من شدة ازدحامه بالحقائق !!

والسيد « توماس جراد جريند » - وهذا اسمه كاملا - لا يعترف بشيء في الحياة لا يندرج تحت قائمة الحقائق المادية ، فأى شيء لا يخضع للاحصاء العددي أو للقياس الحجمي أو الكمي ليس له وجود في رأى السيد « جراد جريند » ، وبالتالي . . . هو يرفض أن يفسح له مكانا في رأسه .

وبينما ظل الأولاد والبنات على صمتهم ، استأنف السيد « جراد جريند » حديثه :

- اننا لا نحتاج في حياتنا هذه الا الى الحقائق . . . البنت رقم ٢٠ قفى ؟ اننى لا أعرف هذه البنت . . . من تكون ؟

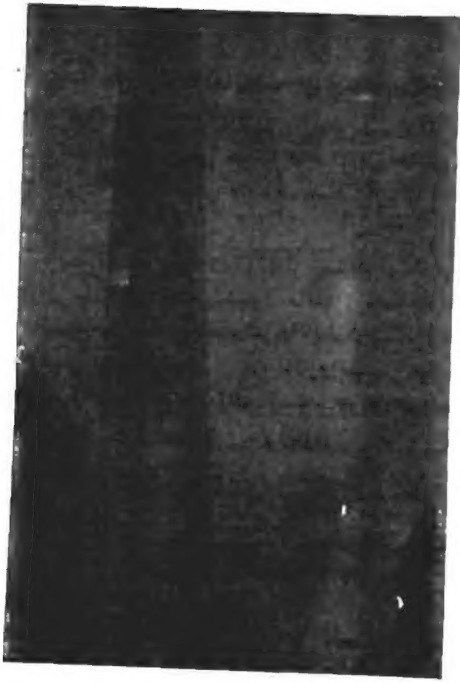
كانت البنت رقم (٢٠) بنتا جميلة لها عينا سوداوان جميلتان وشعر أسود فاحم ، وعندما أشار اليها السيد جراد جريند وأمرها بالوقوف ، وقفت وقد اكتسى وجهها بحمرة شديدة وانحنت تحية واحتراما واجابت على سؤال السيد جراد جريند قائلة :

- اسمى « سيسى جوب » يا سيدى !

فقال :

- أن « سيسى » هذا ليس اسما . لابد أن اسمك هو سيسيليا .

فالت البنت وهي لا تزال على انحنائها محمرة الوجه :



مدينة كوكتاون

- ان أبى ينادىنى « سيسى » . يا سيدى .

فقال لها السيد « جراد جريند » فى حزم قاطع :

- اذن فهو مخطئ . قولى له أنه يجب عليه ألا يناديك بهذا الاسم ثانية . فاسمك هو « سيسيليا جوب » . قولى لى يا سيسيليا . . ما هى صنعة أبيك ؟

- انه يعمل مدربا للخيل فى السيرك يا سيدى .
- فى السيرك ؟! آه يا عزيزتى ! اننا لا نحب أن نسمع شيئا عن هذا هنا . بالتأكيد هو يرعى الخيل عندما تمرض ، أليس كذلك ؟ .

- بلى يا سيدى انه يفعل هذا أيضا .

- اذن فهو طبيب ، طبيب بيطرى والآن يا « سيسيليا جوب » قولى لى ما هو الحصان ؟

فازداد احمرار وجه سيسى ولم تحر جوابا ، فقال السيد « جراد جريند » غاضبا :

— ان البننت رقم (٢٠) بنت غبية ، انها لا تعرف مجموعة الحقائق المتعلقة بحيوان عادى ٠٠ سوف أسأل ولدا .

وتحرك الأصبع المربع فى الهواء وتوقف مشيرا الى « بيتزر » ، وهو طفل أشقر الشعر أبيض الوجه ٠٠ فاتح لون العينين ، باختصار كل ما فيه كان شاحب اللون أو أبيض ، أشار اليه السيد « جراد جريند » وسأله :

— والآن يا بيتزر ٠٠ ما هو الحصان ؟

فاجاب بيتزر بثبات :

— حيوان ، يا سيدى ٠ من ذوات الأربع ٠٠ يأكل الحشائش أو الحبوب ، عدد أسنانه أربعون سنة ٠٠ يستقط شعرة فى الربيع ، ويحتاج الى حذوة من الحديد فى البلاد الرطبة ويعرف سنه من علامات فى فمه و٠٠

فقاطعه السيد جراد جريند موجها الحديث الى سيسى :

— البننت رقم (٢٠) ٠٠ هل سمعت هذا ؟ الآن قد عرفت الحقائق التى يجب أن تعرفها عن الحصان ٠

لم يكن من الممكن أن يحمر وجه « سيسى » أكثر من هذا ، فانحنت ثانية وجلست فى أدب ٠ وهنا تقدم الشاب الانيق المهذب للأمام ٠٠ كان ضابطا فى الحكومة وكان لا يتعامل هو الآخر الا مع الحقائق ٠٠ تقدم وقال :

— ابنائى وبناتى ، استمعنا الآن للحقائق المتعلقة بالحصان ، والآن — اصغوا الى ٠٠ اذا افترضنا أنكم تريدون تجميل هذه الحجره فهل تراكم تضعون صورا للخيل على جدرانها ؟

فاجاب نصف التلاميذ فى صوت واحد قائلين :

— نعم يا سيدى ٠

فحرك الضابط رأسه علامة عدم الموافقة وفى الحال صاح النصف الآخر من التلاميذ :

— لا يا سيدى ٠

فقال السيد المهذب :

فقد تعلم التلاميذ أن هذه هى الاجابة الصحيحة على كل أسئلة هذا السيد ٠ ولكن صوتا واحدا — للحق كان معه صوتين آخرين خافتين — اجاب بـ « نعم يا سيدى » ٠٠ كان هذا هو صوت « سيسى » ، وبسرعة قال السيد المهذب :

— البننت رقم (٢٠) ، هل تشتترين سجادة رسمت عليها صورة أزهار ؟!

فاحمر وجه سيسى وانحنئت بشدة وهى تجيب بصوت خافت :

— نعم يا سيدى ، فانا أحب الأزهار ٠

— ولكن الناس يسرون فوق السجاجيد ، فهل تحبين أن تدهس الأحذية الغليظة أزهارك ؟ ٠

— ان الأحذية لن تؤذى الأزهار المرسومة ياسيدى ، فقط أنا أحب أن أتخيل السجادة بأزهارها وكأنها حديقة جميلة ٠

— لن تفعلوا ! بالطبع لن تفعلوا ٠٠ فهل رأيتم أبدا خيولا تجرى على الجدران ؟ هل رأيتم هذا ؟!

اجابت بضعة أصوات خافتة بـ « نعم ، يا سيدى » ولكنها غرقت وسط طوفان من الصياح بـ « لا ياسيدى » .

فقال الضابط :

— بالطبع لا ، فأنتم لم تروا مثل هذا من قبل ٠ فالخيول التى تجرى على الجدران ليست أمرا واقعا ٠

فقال السيد جراد جريند مؤمنا باعجاب :

— هذا صحيح ، صحيح جدا ٠

واستطرد السيد المهذب قائلا :

— والآن أنتم جميعا ترون أننا يجب ألا نحتفظ بالأشياء غير الواقعية ٠ والآن ٠٠ اذا أردتم شراء سجادة ، فأى نوع من السجاد تشتترون ؟ هل تشتترون سجادة رسمت عليها صور أزهار ؟

اجاب الجميع — هذه المرة — « بلا يا سيدى » ٠

فصاح السيد المهذب :

— « أتخيل ! ماذا تمنين بـ ٠٠ » أتخيل ، ؟
يجب ألا تتخيل أبدا ؟

وهنا تدخل السيد جراد جريند مقاطعا بشدة
وغضب وقال :

— « سيسيليا جوب » ، أننى أمنعك أن تتخيلي أى
شئ ٠

وصاح السيد المهذب قائلا :

— الواقع . ثم الواقع ، ثم الواقع ٠٠

فرد السيد جراد جريند :

— نعم ، الواقع ٠٠ ثم الواقع ٠٠ ثم الواقع

ثم استطرد السيد المهذب قائلا :

— فى هذه المدرسة ، يجب أن تنسوا كلمة «الخيال»
عندما ترسمون ٠٠ لا ترسموا خيولا أو أزهارا فعلى
الورق لا توجد هذه الأشياء ! وعندما تقرأون يجب أن

تقرأوا عن حقائق الواقع، وعندما تكتبون يجب أن تكتبوا
الحقائق ٠٠ الحقائق «لا شئ» غير الحقائق ، هل تفهمونها
هل تفهمين يا ابنتى رقم (٢٠) ؟ ! ٠

فاجابت البنت وقالت :

— نعم ياسيدى ٠

ثم جلست ، كانت صغيرة وجميلة ٠ ولم تكن تعتقد
أن عالم الحقائق المجرد من الخيال يمكن أن يكون عالما
سعيدا ٠

تخطو ، ولو فتشنا فى ذاكرة أطفال جراد جريند عن أول
ذكرى ، لوجدناها ٠٠ سبورة سوداء !! أن أطفال عائلة
جراد جريند لا يعرفون شيئا عن قصة « الدببة الثلاث »
ولكنهم — بالطبع — يستطيعون ترديد « الدب حيوان من
ذوات الأربع له جسم ضخم وغطاء سميك من الفرو » ،
وهم أيضا لم يسمعوا عن ٠٠ « الرجل الذى يحيا فوق
القمر » ٠٠ يعيش فوق القمر ! ٠٠ أوه ٠٠ لا ! فالقمر —
فى علمهم — صحراء جافة خالية مملوءة بالصخور
والرمال ٠ أما الشمس ٠٠ فهي أبدا لم تبتسم لأحد من
أطفال عائلة جراد جريند ! وكيف لها أن تفعل ؟ ! ٠٠
إنها مجرد كمية من الغازات الساخنة ٠

أما ستون لودج نفسه فكان منزلا مربع الشكل
كبيرا ، يبعد ميلا خارج مدينة كوكتاون فى شمال غرب
انجلترا ، ولم يكن به أى شئ خيالى ٠٠ فله ست نوافذ
على كل جانب من جانبي الباب الأمامى ، وله اثنتا عشرة
نافذة فى الخلف ٠٠ وكان منسقًا ومنظما ٠٠ فهكذا يجب
أن تكون بيوت السادة الوجهاء ، وكأى شئ فى حياة
السيد جراد جريند ، كان ستون لودج واقعا لا خيالا ٠

الفصل الثانى

كان السيد « جراد جريند » يشعر بسعادة بالغة
وهو يسير عائدا الى بيته فى هذا المساء فتلاميذ مدرسته
سيصحبون عما قريب فى نفس ذكاء أطفاله هو
شخصيا ٠ ومن المؤكد أنه لا يوجد مربى يستطيع أن
يتفوق عليه فى تربية أطفاله الخمسة ٠

بالطبع ، كان بيت السيد « جراد جريند » والذى
يسميه « ستون لودج » يحتوى على حجرة للدرس ٠٠
فى الحقيقة كانت هذه الحجرة هى السجن الخاص بأطفاله،
وهى أول مكان تخطو اليه أقدامهم بمجرد أن تتعلم كيف

كانت أعمال السيد جراد جريند قد جعلت منه رجلا غنيا ٠٠ فقد كان يشتري الاواني المعدنية من المصانع ويبيعها للمتاجر ، وكان العائد الضخم الذي يربحه من تجارته هو الحقيقة الوحيدة التي لم تفشل في اسعاده أبدا ٠٠ الآن أصبح لدى السيد جراد جريند عمال وموظفون يقومون بمعظم العمل ، وبالتالي توفر له المزيد من الوقت لأشياء أخرى هامة ٠ والحكومة القوية الناجحة هي أحد هذه الأشياء الهامة التي يهتم بها السيد جراد جريند ، فهو يود أن يصبح نائبا في البرلمان عن مدينة كوكتاون ٠ ولماذا لا يكون ؟! ٠٠ لقد عاش حياته في هذه المدينة ، كما أنه قد بنى وأنفق على المدرسة الجديدة ، وبخبرته كرجل أعمال يمكنه أن يكون نائبا ممتازا ، وهناك أيضا لا ننسى ميزة مؤكدة وهي أن البرلمان في حاجة لرجال واقعيين يؤمنون بالحقائق فقط ٠

ان توماس جراد جريند رجل أعمال ناجح وصعب المراس (هكذا يقول سكان كوكتاون) وليست هناك متعة أو لهو في حياة السيد جراد جريند ٠٠ ولأن

٢٦

السيد جراد جريند رجل يحب الحقائق فقط ، فقد أزعجه جدا أن يسمع صوت موسيقى بينما هو يسير في طريقه الى بيته في ذاك المساء، فالرجال ذوو الرؤوس الصلبة يستمتعون بحياتهم أكثر بدون موسيقى ، هكذا كان يعتقد جراد جريند - ولهذا ضايقه صوت الموسيقى ، كان الصوت يأتي من خيمة سيرك سليري التي بنيت عند أطراف المدينة ، وعند باب السيرك ٠٠ كان يقف سليري نفسه ، رجل بدين يحمل صندوق نقوده ويصيح :

- أسرعوا ٠٠ هلموا ٠٠ الخيل مستعدة - هلموا ٠٠ شاهدوا الأنسة جوزفين سليري الشهيرة التي تركب جوادها الأبيض واقفة على ظهره ٠٠ أسرعوا ٠٠ هلموا ٠٠ شاهدوا السيد جوب وهو يمتطي صهوة جواده ومعه كلبه المدرب ميرى ليجز ٠٠ شاهدوا أيضا السيد شيلدرز ٠٠ !

لم يتوقف السيد « جراد جريند » بالطبع فليس عنده وقت يضيعه في مثل هذه الأشياء التافهة ٠

٢٧

- انني ٠ لم أفتأ في حياتي الى هذه الدرجة من قبل ٠٠ ماذا تفعلان هنا ؟!

فاجابت لويزا بنبرة فيها تحد :

- كنا نود أن نرى كيف يكون السيرك ؟

- كيف يكون ؟! ٠٠ سيرك ؟!

- نعم يا أبي !

خيم الحزن والأسف على وجهي الطفلة، خاصة لويزا ، وان كان هناك بريق ينبعث من عينيها بريق غير مستقر ، كان بهما نارا جانعة ٠٠ عجيبة ٠٠ تريد أن تبقى على نفسها مشتعلة بغير وقود يحترق !

كانت لويزا فتاة في الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمرها ٠٠ امرأة تقريبا ٠٠ وكانت جميلة ، وكان أبوها يعرف ذلك وكان يقول في نفسه : أنها ربما عانت كثيرا بسبب جمالها ، لو أن شخصا غيره تولى تربيتها ٠

٢٩

انعطف الطريق الى اليسار وأصبح يمر خلف الخيمة الكبيرة ، وهناك رأى السيد « جراد جريند » ثلاثة ، أو أربعة من الأطفال خلف الخيمة ٠٠ كانوا ٠٠ نعم ! ٠٠ كانوا يسترقون النظر من خلال ثقب صغير في الخيمة ليشاهدوا ما يحدث داخل السيرك !

فقال « جراد جريند » في نفسه : « يالهؤلاء الأشقياء ! انهم لم يذهبوا الى المدرسة ظهر اليوم ، سوف أقترب منهم ، ربما عرفتهم ٠٠ »

وبالفعل عرف منهم اثنين على الفور ٠٠ ابنته « لويزا » وأخوها « توماس الصغير » ٠٠ فصاح جراد جريند مناديا عليهما في حدة :

- لويزا ! توماس !

فاستدار بسرعة وجهان صغيران تكسوهما حمرة الحجل ٠٠ نظرت لويزا لأبيها في تحد صبياني بينما لم يرفع « توماس » رأسه من الأرض لشدة خوفه ، وصرخ السيد « جراد جريند » :

٢٨

- كنت متعبة ، منذ وقت طويل وأنا أشعر
بالتعب .

- متعبة ؟ من أى شيء ؟

- لا أعرف . ربما من كل شيء .

- انك تتكلمين كطفل صغير . لا أريد أن أسمع
منك كلمة أخرى .

وساروا - ثلاثتهم - حوالى نصف الميل فى
صمت ، ثم تساءل السيد جراد جريرند قائلا :

- ترى ماذا يقول أفضل أصدقائك عنك عندما
يمرون ؟ ألم تفكرى فى هذا ؟ ماذا يقول السيد
« باوندر باى » ؟

ما أن سمعت لويزا أباهما ينطق بهذا الاسم حتى
نظرت اليه بسرعة نظرة ذات مغزى ، ثم أشاحت بوجهها
بعيدا . ولم يلحظ أبوها أى شيء . بل ردد سؤاله :

٣١

أخيرا قال السيد جراد جريرند :

- توماس . . اننى أوجه اليك اللوم على هذه
هذه المغامرة ! ان فتى فى مثل تربيتك وتعليمك كان
الأحرى به ألا يحضر أخته لمثل هذا المكان .

فردت لويزا بسرعة :

- أنا التى أحضرته يا أبى . . فقد طلبت منه أن
يأتى معى .

- انى جد حزين لسماعى هذا . ولكن هذا ليس
عذرا يا توماس ، وفى نفس الوقت فان موقفك أصبح
أشد سوءا يا لويزا .

فنظرت لويزا فى وجه أبيها ثانية ، هذه المرة
بعينين غير دامتعتين . بينهما استأنف أبوها الكلام
قائلا :

- أنت يا توماس ! . . وأنت ! ان كل المعارف
مفتوحة أمامكما وتربيتكما تربية كاملة ، وكل حقائق
الكون فى متناول أيديكما . . ثم تأنيان الى هنا ! . .
أنت وتوماس ! . . الى السيرك !! أنا لا أستطيع أن
أفهم هذا . . لا أستطيع .

٣٠

- ماذا يقول السيد « باوندر باى » هه ؟ ماذا
يقول ؟

وأخذ يردد نفس السؤال طوال الطريق حتى
وصلوا الى ستون لودج ، ليجدوا « باوندر باى » فى
انتظارهم .

كان السيد « باوندر باى » يجلس بجوار المدفأة
عندما دخل السيد « جراد جريرند » وبصحبه ابنته
« لويزا » وابنه « توماس » ، وجلس جراد جريرند على
مقعد بجوار المدفأة أيضا . ونظر باوندر باى الى لويزا
نظرة كأنه يقول بها (هأنذا رجلك . . باوندر باى) .

كان السيد « باوندر باى » رجلا ضخما الجسم ،
فظا . . على الصوت و . . غنيا جدا . فقد كان يملك
أكبر مصنع للنسيج والملابس الجاهزة فى « كوكتاون »
وهو أيضا صاحب المصرف الوحيد وهو - على حد
تعبيره - رجل عصامى بنى نفسه بنفسه . وقد اعتاد
على الصياح متباهيا - على رأى ومسمع من الناس -
بقوله :

٣٢

- لم يكن عندى هذا أردتديه . . كنت حافيا
يا سيدى ، ولم يحمل جيبى مليما واحدا . . لأنه فى
الحقيقة لم يكن لى جيب . يا سيدى . رمتنى أمى فى
الشارع وأنا ابن الرابعة من عمري . . اتسول فى
الشارع طيلة النهار ، وحين يأتى الليل . . أنام على
أرصفتي . لم أذهب فى حياتى الى مدرسة ، ولكنى . .
علمت نفسى بنفسى ، كل هذا ولكن - أنظر الى الآن
يا سيدى . . اننى رجل عصامى .

كان السيد « جوزيه باندر باى » - وهذا هو
اسمه كاملا - أحمر الوجه ، صلب الرأس ، فى الثامنة
والأربعين من عمره وان كان يبدو أكبر سنا من هذا . .
على الأقل بعشر سنوات ، وله صوت جهير كأنه صوت
الرعد . ولأن رأسه أصلغ خال تماما الا من شعيرات
قليلة ، فقد اعتاد الناس فى كوكتاون أن يسخروا منه
- فيما بينهم - بقولهم أن (صوته الرعدى قد أطاح
بشعره منذ زمن بعيد) .

نظر « باوندر باى » الى « لويزا » ، ولكنه عندما
تكلم . . تكلم الى « توماس » قائلا :

أوقات عصيبة ٣٣

– انك لا تبدو سعيدا الليلة يا « توماس » .

فقالت « لويزا » :

– كنا نحاول مشاهدة السيرك ، ولكن أبى أمسك بنا .

فصرخ أبوها :

– ان مشاهدة السيرك عمل مشين مثل ٠٠ مثل قراءة الشعر تماما ! ألا توافقينى على هذا يا مسز « جراد جريند » ؟

فقالت زوجته :

– بلى ؛ بالتأكيد . اننى لا أستطيع أن أفهمكما يا لويزا ٠٠ أنت وتوماس . فلماذا تذهبان لمشاهدة السيرك ؟! أليس لديكما ما يكفى من العمل فى حجرة الدرس ؟ : كما تعرفان أن راسى المسكين مصاب بالصداع دائما فلا يمكنه تذكر نصف ما تعرفان من الحقائق والعلوم .

٣٤

فقالت لويزا بتحد :

– ان هذا هو السبب !

فقالت لها أمها :

– لا يا لويزا . ليس هذا هو السبب ، أنت تعلمين هذا ! ٠٠ والآن اذهبا الى حجرة الدرس وذاكرا شيئا ، لكم كنت أتمنى أن أحظى بمثل فرصتكما فى التعليم .

لم تكن السيدة « جراد جريند » متعلمة حقبا ، فهى لا تعرف الا القليل من حقائق الكون ، وقد تزوجها السيد « جراد جريند » لأن – على حد تعبيره – الرأس الفارغ ، أفضل كثيرا من رأس تملؤه الخيالات والأوهام . أخيرا ، أصبح السيدان الزوجيان وحدهما .

فقال السيد جراد جريند مخاطبا صديقه :

– باندرباى ، اننى قلق للغاية – فأولادى تلقوا احسن تربية واحسن تعليم ٠٠ أقصد أنهم تعلموا كل الحقائق العلمية تقريبا ، ولكن ٠٠ الآن أشعر أن شيئا آخر بدأ يزحف على رأسيهما ، وانى لأتساءل ما الذى يدفعهما لزيارة هذا السيرك ؟ ما رأيك ؟

٣٥

فاجاب باوندرباى :

– ربما تكون الأحلام

– أوه ، أمل ألا يكون هذا ! ولكن ٠٠ بالفعل ٠٠ ربما تكون على حق .

– ان أحلام اليقظة شئ سئ ، بالنسبة لاي انسان ، ولكنها تصبح شيئا مرعبا اذا كان الأمر يتعلق بفتاة مثل لويزا . انى أتساءل عما اذا كان أحد ما قد تحدث معها فى هذه الأمور ٠٠ ألا يوجد طفل من السيرك ملتحق بمدرستك ؟

فامتقع وجه السيد « جراد جريند » وأجاب :

– نعم ، « سيسيليا جوب » لقد رأيتها اليوم فقط ٠٠

فأخذ السيد باوندرباى شهيقا عميقا ثم قال :

– حسن ، أطردها يا جراد جريند ٠٠ أطردها فى الحال .

– الحق ما تقول ، فلنذهب سويا لأبيها ٠٠ الآن ، فقط انتظرنى ريثما أحضر العنوان من مكتبى .

٣٦

وفى أثناء انتظاره ، ذهب باوندرباى الى حجرة الدرس ، حيث كانت « لويزا » و « توماس الابن » والصفار الثلاثة الآخرون ، أطفال عائلة جراد جريند ، وكانت الصغيرة « جان » قد رقدت فوق صفحة مملوءة بالصور .

قال السيد باوندرباى :

– كل شئ على مايرام الآن ، فقط لا تذهبا للسيرك ثانية وسيسامحكما أبوكما هذه المرة والآن يا لويزا ٠٠ ألا أستحق قبلة على هذا ؟ ٠٠ أليس كذلك ؟

فقدمت له لويزا خدها ولكنها لم تنظر اليه بعينها

وقالت :

– يمكنك أن تأخذ واحدة يا سيد باوندرباى !

فقبلها باوندرباى وهو يقول لها :

– أنت دائما سيدتى الصغيرة ، الى اللقاء .

وبمجرد أن خرج ٠٠ أخذت لويزا تسمح خدها

٣٧

لتمحو أثر القبلة ، وأخذت تحكه بعنف حتى أصبح
محمرًا جدًا ، فداعبها أخوها توماس قائلاً :

- سوف تحفرين حفرة في خدك يا لو .

- لو أنك قطعت هذه البقعة التي قبلها بسكينك
يا توماس ، لما وجدتني أتالم أو أبكى .

الفصل الثالث

أسرع كل من السيد باوندرباى والسيد جرادجريند
بالخروج فى اتجاه كوكتاون .. كانا فى طريقهما الى
شارع (بود) حيث يقيم السيد جوبه والد سيسيليا .

ان أقبح حقائق الواقع والمتعلقة بكوكتاون .. هو
كوكتاون نفسها ، فاذا كنت تتصور أن بهذه المدينة أى
مظهر من مظاهر الجمال ، فقد جانبك الصواب بالتأكيد
.. مبانيتها بنيت بالقرميد الأحمر .. ولكن هذا كان
منذ زمن طويل فقد استحال اللون الأحمر الى لون
أسود داكن قبيح بفعل الغبار ودخان المصانع . فمدينة

٣٩

٣٨

كوكتاون مدينة صناعية .. مدينة آلات ضخمة ومداخل
مرتفعة وسحب كثيفة من الدخان الأسود تملأ الجو ..
هكذا هى كوكتاون .. وربما هكذا ستكون .. للأبد .
وفى كوكتاون توجد ترعة ضيقة مياهها سوداء اللون ،
ونهر صغير .. أحمر .. وهذا اللون الأحمر هو بفعل
النفايات وبقايا الأصباغ التى تلقى بها مصانع النسيج
فى هذا النهر .

وفى مدينة كوكتاون عدة شوارع واسعة .. كلها
متشابهة تماما ، وفيها أيضا مجموعة من الشوارع
الضيقة المزدحمة بالمنازل وكلها - أيضا - متشابهة
تماما . حتى سكان هذه المنازل .. كلهم متشابهون
تماما ، فكلهم يبدأون العمل فى الساعة صباحا تماما ،
وفى المساء يعود الجميع الى بيوتهم فى الساعة مساء
تماما . وبالنسبة لهؤلاء الناس فان اليوم يشبه الأمس
.. يشبه الغد ، وهذا العام كالعام الماضى - كالعام
القادم .

وكل هذه الحقائق .. لا تدهش أحدا ، فالحياة
فى كوكتاون تعنى العمل ، العمل والعمل وحده يعنى

٤٠



منظر للبحيرة

٤١

الحياة واستمرارها .. ربما ليوم آخر أو .. لتمام آخر .

ونعود لوصف أبنية هذه المدينة ، فكوكتاون بها ثمان عشرة كنيسة مبنية بالقرميد الأحمر وكلها متشابهة ، والمستشفى - المبنى بالقرميد الأحمر - يشبه السعجن - المبنى أيضا بالقرميد الأحمر - وأهم أوجه الشبه هو أنه داخل المباني .. وداخل عقول سكانها لا يوجد مكان سوى لحقائق الواقع .. والواقع فقط .

وبرغم أن كوكتاون كانت مدينة واقعية ، إلا أنها كانت تعاني من بعض المشاكل ، فالعمال وأسرهم لا يذهبون مطلقا للكنيسة ولا في أيام الآحاد ، وهم يفرطون في الشراب .. بالطبع لا أقصد شرب الشاي أو القهوة ! .

ولهذا كان أعضاء البرلمان يطالبون دائما بإصدار القوانين قائلين : « نحن نحتاج لقوانين صارمة .. سوف نجعل هؤلاء الناس يذهبون للكنيسة بقوة القانون ،

٤٢

فاستدارت البنت رقم (٢٠) وقفلت راجعة وقالت للسيد « جراد جريند » :

- نعم ، يا سيدى

- نحن نبحث عن أيبك ، السيد « جوب » ، فهلا صحبتينا - أنا وهذا السيد المهذب - الى حيث يسكن أبوك ، فانا نود التحدث اليه .

- أفعل يا سيدى ، وشكرا لك . سيدى .. اذا سمعت صوت كلب فلا تنزعج فهو ليس الا (ميرى ليجز) كلب أبى المدرب وهو أبدا لا يؤذى أحدا .

ولكن .. ميرى ليجز لم يكن بالبيت ، ولا السيد جوب أيضا . فقالت سيسى :

- أرجوك .. استرح لحظة يا سيدى ، سوف أذهب بسرعة وأحضر أبى .

وبعد أن أحضرت مقعدين للسيدتين ، جرت مسرعة لتستدعى إياها .

بعد حقيقة من هذا ، دخل شاب الى الحجرة ، لم

٤٤

وبقوة القانون - أيضا - يجب عليهم ألا يفرطوا في شرب الخمر ، .

ونستطيع القول .. أن سكان هذه المدينة كانوا يشبهون « لويزا » أو « توماس الابن » بوجه أو بآخر . فشئ هام قد ضاع من حياتهم .. بالتأكيد ليس الواقع ، فهم يعانون تخمة في هذا الشأن ، فهل ما ينقصهم هو .. الخيال ؟ .. ربما كان هذا الشئ المسمى بأحلام اليقظة أو .. ربما كان المتعة والسعادة الموجودة في (سيرك سليرى) .

مر السيد باندرباي والسيد جراد جريند بالسيرك أثناء سيرهما ، ولكنهما لم يلتفتا اليه .. وأخيرا .. وصلا لنهاية شارع (بود) حيث يعيش السيد « جوب » وابنته .. « سيسيلى » .

فجأة ظهرت « سيسيلى جوب » وهى تجرى بالقرب من ناصية الشارع ، فعرفها السيد « جراد جريند » على الفور وناداهما :

- أهلا .. انتظرى .. نحن نريدك ! .

٤٣

يكن فارغ الطول ولكنه كان يبدو قويا جدا تبرز عضلات صدره وذراعيه من تحت ستروته ، انه السيد « تشيلدرز » رجل سيرك سليرى القوى . دخل « تشيلدرز » وقدم نفسه للسيدتين .. ثم سالهما :

- هل تودان مقابلة السيد « جوب » ؟ .

فاجاب السيد « جراد جريند » قائلا :

- أجل ، وقد ذهبت ابنته لتستدعيه ، ولكننا فى الحقيقة ليس لدينا ما يكفى من الوقت لانتظاره ، فهل تتكرم وتبلغه رسالة منا ؟

وعقب السيد « باوندرباي » قائلا :

- نحن قوم نقدر قيمة الوقت ، بينما لا يعرف مثلك قيمته أيها الشاب .

فرد عليه « تشيلدرز » بضيق :

- اذن لا تضيع وقتنا يا سيد ..

ثم استدار للسيد « جراد جريند » وخاطبه فى لهجة ودية قائلا :

٤٥

- ٠٠ ان والد الفتاة قد ذهب يا سيدى .

- ذهب ؟ الى أين ذهب ؟

- لقد ترك السيرك يا سيدى ، ففى خلال الأسبوع الماضى تضائل نجاحه ودرجة قبول المشاهدين له .. فرحل .

فقال السيد « باوندرباى » :

- يبدو أننا بين صنف غريب من الناس يا « جراد جريند » ، لم يعد « جوب » محبوبا من الجمهور لهذا هرب !! والآن ، ان رجلا مثلى أنا ارتفع بنفسه ..

قاطعه « تشيلدرز » قائلا بسخرية :

- اذن فانزل بها !

وتساءل السيد « جراد جريند » :

- ولكن ماذا عن الصبية الصغيرة .. ابنته ؟ انه بالطبع لم يتركها ، أو تراه فعل ؟
- أخشى أن هذا صحيح يا سيدى ، رغم أنه وابنته

٤٦

كانا شديدى التعلق ببعضهما البعض .. ولكن .. « جوب » أصبح عجوزا لا يقوى على العمل بالسيرك ، فأصبح يشعر بالحجل من نفسه .

وهنا قال « جراد جريند » مندهشا :

- أهكذا ؟ ترك ابنته وهرب ؟

أصاب السيد جراد جريند الذهول لأنه برغم كونه رجلا صلب الرأس قوى الشكبة كان أيضا رجلا يعرف معنى العائلة .. رجل عائلى .. ان صح التعبير !
أجابه تشيلدرز قائلا :

- لقد كان خجله شديدا لدرجة لم يستطع معها أن يبقى بجوار ابنته ، فقد كان يحبها لدرجة أنه ..

وهنا صاح باوندرباى مقاطعا بصوته الرعدي :

- لدرجة أنه تركها وهرب . حسنا .. هذا شيء طيب ، سوف أخبرك بشئ أيها الشاب ، أننى أفهم مثل هذه الأشياء .. قد تندم .. ولكن أرى أنا أيضا تركتني صغيرا وهربت .

٤٧

وقاطعه « جراد جريند » :

- لقد كان هذا رأيا صائبا

- آه .. أجل ، وقد سعد أبوها جدا حين التحقت بالمدرسة هنا ، وبالطبع نحن سنرحل عن كوكتاون الشهر القادم و ..

وتهمل تشيلدرز قبل أن يكمل عبارته للنهاية ونظر فى عيني السيد « جراد جريند » ثم استأنف حديثه :

- اذا كنت قد جئت هنا لتساعدنا يا سيدى اذن .. فان السماء قد وهبتها حظا سعيدا .

- حسن ، ان مدرستى مخصصة لأطفال مدينة كوكتاون وقد جئت هنا لأخبر السيد جوب .. أننا لا نريد أحدا من السيرك .. ولكن الآن .. اذا كان أبوها حقيقة قد تركها ودخل فربما أمكن ..

وقطع السيد جراد جريند حديثه ونظر للسيد « باوندرباى » ثم قال :

٤٩

- لست مندهشا يا سيدى فقد فعلت والدتك الشيء الصواب ، ولكن أرجوك لا تصرخ بصوت عال هكذا فجدران هذا البيت المتهالك قد تسقط لو أنك تحدثت بمثل هذا الصوت ثانية ..

ثم استدار تشيلدرز لجراد جريند واكمل حديثه **قائلا :**

- .. كان جوب حزينا طوال اليوم وقد رحل قبل أن تعود « سيسى » من المدرسة وأخذ معه كلبه المدرب (مرى ليجز) .. ان « سيسى » لن تصدق أنه رحل وتركها .

فسأله جراد جريند :

- ولم لا ؟

- لأنها كما أخبرتك كانا شديدى التعلق ببعضهما البعض ، ولم يفترقا من قبل أبدا ..
باللمسكينة سيسى اننا لم نعلمها أى شئ فلم يكن جوب يريد لها العمل فى السيرك كان يريدنا أن نتعلم ولهذا فانها ..

٤٨

- « باوندرباى » .. ألا تنصحتى بشئ ؟ ..
أيها الشاب هل تمنع فى تركنا وحدنا للحظة ؟
فخرج شيلدرز ووقف أمام باب الغرفة حيث كان
بإستطاعته أن يسمع جزءا من الحوار الدائر بين
السيدتين :

- لا .. أقول لك .. لا .. يا « جراد جريند » !
- .. مثلا للويزا .. نهاية حياة شيطانية
يا باوندرباى وانى لأمل أن ...

فى هذا الوقت كان بقية أفراد السيرك قد تحلقوا
خارج باب الغرفة بجوار تشيلدرز . كان خليطا عجيبا
من البشر .. مدربو خيول ومروضو حيوانات متوحشة ،
راقصون ومغنون .. نساء بديئات وأخريات نجيفات ،
بعضهن جميلات وبعضهن قبيحات جدا ، ولكنهم جميعا
يبدون - بطريقة ما - متماثلين ، فهناك سمة واحدة
تميزهم جميعا .. البسطة والرقعة .. رقة كركة
الأطفال ، ومن عيونهم كانت تطل نظرة ملؤها الأمانة ..

٥٠

فى هذه اللحظة عادت سيسى ودفعها الواقفون
إلى خارج الى داخل الغرفة ثم عادوا وتحلقوا حول
الباب .
كانت سيسى تبكى ودموعها على خديها وهى
تقول :

- آه يا أبى العزيز .. يا أبى الطيب ! ماذا
عساك ستفعل بدونى ؟ كم ستكون قليل الحيلة ؟ !

وهنا صرخ السيد باوندرباى قائلا :

- اسمعوا جميعا .. اننا نضيع الوقت هكذا ،
ان أمى تركتنى وهربت ووالد هذه البنت فعل نفس
الشئ .. والحقائق واضحة .. ان أبوها قد هرب
ولن يعود ثانية ولن تراه مرة أخرى .. !

فقال أحد الواقفين خارج الغرفة :

- من يكون هذا ؟ هل يعتقد هذا الشخص أنه
يعرف كل شئ ؟ ..

وصاحت النساء :

- يا للعار .. انه انسان متوحش فظ !

٥٢

والرحمة أيضا ! كانوا صنفا من الناس يحب مساعدة
الآخرين .. دون حساب للتكاليف ..

آخرأ وصل السيد « سلىرى » ودخل الغرفة
وقال مخاطبا السيد جراد جريند :

- هل سمعت عن رحيل السيد جوب وكلبه ،
يا سيدى ؟ ألهذا أنت هنا ؟ .. بخصوص البنت ؟
- أجل ولسوف أقدم اقتراحا عندما تعود .
- أنا سعيد بهذا يا سيدى ، فأنا لا أريد أن
أُخلص من البنت بأية طريقة .. لا .. فهناك ما يشبه
القانون يحكمنا هنا فى السيرك .. اننا جميعا نساعد
بعضنا البعض .
- آه ، أجل .. بالطبع .

استأنف « سلىرى » حديثه قائلا :

- ان خطتك من أجل مستقبل « سيسى » قد تكون
خيرا من خطتى . اذا بقيت معنا فسيكون عليها أن تعمل
فى السيرك وسيكون عليها أن تبدأ من القاع وأبوها لم
يكن يريد ..

٥١

فاقترب « سلىرى » من « باوندرباى » **وقال له :**

- ان عشتى .. هؤلاء ، ليسوا مؤذنين بما فيه
الكفاية ، ولكن النافذة مفتوحة يا سيدى وأخشى ان أنت
تفوهت بكلمة أخرى فلربما قذفوا بك من خلالها ولهذا
.. خذ بنصيحتي والزم الصمت .

أخذ السيد « باوندرباى » بالنصيحة ولكن وجهه
كان يتميز من الغيظ . **بعد هذا قال السيد جراد جريند :**
- حسن ، لقد ذهب الرجل ، قد يعود ثانية ..
لكننا لا نعلم متى . أعتقد أننا جميعا نتفق على هذا
الرأى .

فاجاب « سلىرى » :

- أجل يا سيدى ، هذا صحيح

لقد كنت قررت أن أطرد سيسيليا جوب من
مدرستى ، ولكن الواقع قد تغير الآن ، انها لا تنتمى
للسيرك لأن أباهما قد تركها ، وأنا على استعداد لأن
أرعاها وأعلمها اذا وافقت .. فسيكون عليها أن تأتى

٥٣

معى الآن ، كما سيكون عليها ألا تراسل أيا منكم بعد الآن سيداتي وسادتي ، وهذا كل ما عندي لأقوله .

فقال « سليرى » :

— ان هذا كرم وعطف منك يا سيدى ، والآن جاء دورى لأقدم عرضى ، ثم بعد هذا تتخذين قرارك يا سيسيليا ، اذا اخترت البقاء معنا فسوف تعيشين مع « ايمما جوردون » وأنت تعرفين أى نوع من العمل سيكون عليك أن تتعلميه وتعرفين أى نوع من الحياة ستعيشين . . . أعتقد أن هذا كل شيء . . .

فقال جراد جريند :

— هذا عدل جدا . . . تذكرى يا آنسة « جوب » ان تعليم الفتاة شيء هام وأبوك كان يريد لك أن تتعلمى . . . أليس كذلك ؟ يجب أن تفكرى فى هذا . . . ثم تقررى وكونى واثقة أن قرارك سيكون بعد تفكير .

توقفت « سيسى » عن البكاء للحظة ، ولكن فجأة اندفع الدمع من عينيها غزيرا وقالت :

٥٤

— انها لن تنسانا يا سيدى ، فنحن نسعد الناس . . . ننسبهم أحزانهم . . . هذا هو عملنا فالناس يجب أن يجدوا من يسرى عنهم ، انهم لا يستطيعون أن يعملوا طول الوقت !

وسار السيد جراد جريند والسيد باوندرباى مبتعدين وبينهما سائت البنث رقم (٢٠) . . .

٥٦

— اذا عاد أبى ، أريد أن أكون فى انتظاره ، والا كيف . . . كيف سيجدنى بعد هذا ؟

فقال السيد « جراد جريند » بهدوء :

— لا تقلقى بهذا الخصوص يا « جوب » فأبوك سيستطيع بسهولة أن يهتدى لسيرك السيد سليرى . والسيد سليرى سوف يخبره أنك فى بيت السيد « توماس جراد جريند » وأنا « توماس جراد جريند » من وجهاء كوكتاون كما أنى معروف جدا . وبالطبع لن يمكننى أن أحتفظ بك لو أن أباك طلبك .

وطوال العشر دقائق التالية انهمرت دموع غزيرة على خدى سيسى ، ولكن قبيلات كثيرة أيضا طبعت على خذها ، وساعدت فى كفكة الدموع . وأخيرا أصبحت سيسى مستعدة بسلتها الصغيرة التى تحوى ملابسها وتتابعت الأصوات . . . « مع السلامة يا سيسيليا » . . . « وداعا سيسى » . . . « لا تنسينى يا سيسى » !

ثم كانت الكلمات الأخيرة . . . قالها السيد سليرى للسيد جراد جريند :

٥٥

الفصل الرابع

لم يكن السيد « باوندرباى » متزوجا ، لهذا كان يستخدم مديرة لمنزله . . . « مسز سبارسيت » تعمل كمديرة منازل فى الحقيقة ، ولكنها كانت سيدة تنتمى لعائلة كبيرة غنية ، الا أن السيد سبارسيت زوجها توفي شابا ثم ما لبث أن دب الخلاف بين مسز سبارسيت وعائلتها فغادرت منزل العائلة وكان لزاما عليها أن تجد عملا .

وكان السيد « باوندرباى » « ومسز سبارسيت » يشكلان ثنائيا غريبا وعجيبا من البشر فالسيدة كانت

٥٧

فخورة بماضيها وأصلها العريق فى حين أن حاضرها
يشير خجلها وحزنها ، أما السيد فداعى افتخاره هى
أنه كان فقيرا وضيعا فى يوم من الأيام ٠٠ وقد اعتاد
أن يقول لأصدقائه :

— لقد ارتفعت من الحضيض الى هذا المستوى
الذى أعيش فيه بمجهودى وحدى ، أما مسز
« سبارسيت » فبرغم كل الفرص التى تمتعت بها فانها
وصلت فى النهاية الى لا شيء ؟

عندما غادر السيد باوندرباى والسيد جراد جريند
(بود ستريت) أخذ سيسى الى بيت السيد باوندر باى
ونامت هناك تلك الليلة ، فقد كان على السيد جراد
جريند أن يعد لها غرفة فى ستون لودج قبل أن تنتقل
اليه .

وفى الصباح التالى ، قال السيد « باوندرباى »
للسيد « سبارسيت » :

— هذه البنت ستنتظر هنا يا « مدام » حتى يحضر
« توم جراد جريند » ، اننى قلق لهذا الوهم الغريب
فالفكرة ليست فى صالح « لويزا » على الإطلاق .

٥٨

— آه يا سيدى ٠٠ انك أب آخر للآنسة لويزا
— مدام ٠٠ قولى أب آخر « لتوم الابن » فهذا
محتمل فعن قريب سيعمل عندى فى المصرف وسيأتى
ليعيش معنا ٠ قولى لى يا (مدام) هل تعرفين شيئا
عن لاعبى السيرك هؤلاء ؟

— لقد تعلمت القليل عن الحياة الوضيعة ٠٠ منك
يا سيدى ؟

فضحك باوندرباى وقال :

— أجل ٠٠ أجل ، بالطبع ، فانت قد ولدت
وعشت فى القصور ، أما انا فولدت فى الشارع .
— هذا صحيح يا سيدى ، فانى ولدت فى القصور
وفى رفاهية أما أنت فـ ٠٠٠

فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل السيد
« جراد جريند » ومعه لويزا ، فتصافح السيدان
وطبع السيد « باوندرباى » قبلة على خد « لويزا » .
ثم استدعيت « سيسى » التى انحنى تحية لكل الموجودين

٥٩

٠٠ ثم بدا السيد « جراد جريند » الحديث قائلا
« لسيسى » :

— حسن يا آنسة « جوب » ، لقد قررنا لك
مستقبلك ٠ سوف تعيشين فى بيتى وتذهبين الى المدرسة
كل يوم ٠ لعلك لا تعرفين أن السيدة زوجتى مريضة
وعلى هذا فيمكنك الاعتناء بها فى الأيام التى لا تذهبين
فيها الى المدرسة ٠ لقد أخبرت الآنسة « لويزا » — هذه
هى الآنسة « لويزا » — عن حياتك السابقة فى السيرك
٠٠ هذه الحياة انتهت الآن ويجب عليك ألا تتحدثنى
عنها ثانية فالآن يجب عليك أن تبدأى فى تلقى العلم
وقولى لى ٠٠ ألا تعرفين أى قدر من الحقائق الواقعية
يا « جوب » ٠٠ ؟

فأجابت سيسى وهى تنحنى :

— لا يا سيدى .

— انى سوف أغير هذا الوضع بسرعة .

ثم اقترب من سيسى أكثر وقال بصوت خافت :

— هل تستطيعين القراءة يا جوب ؟

— أوه ! أجل يا سيدى ، فأبى لم يكن يحسن
القراءة ٠٠ ولهذا فقد اعتدت أن أقرأ له ٠٠ لقد كانت
أسعد أوقاتنا تلك التى كنا نقضيها معا فى القراءة .
— وماذا كنت تقرأين ؟

— قصصا يا سيدى ٠٠ قصصا رائعة ، عن الجنيات
الطيبات والجنيات الشريرات ، وعن « روبنسون كروزو »
و « جاليفر » و « الملك العارى » ٠٠ آه يا سيدى
وكم كنا نسرح ونسبح فى الخيال !

— هيه ٠٠ هذا يكفى ٠ يجب ألا تسرحى ثانية
يا جوب ٠٠ أبدا ٠ ان هذا لجد خطر يا باوندرباى ان
الضرر قد وقع بالفعل ويجب أن أبدا فى الحال فى
اصلاحه !

فقال باوندرباى :

— لقد حذرتك يا جراد جريند ٠٠ لقد حذرتك
بالأمس ٠ انك مقدم على فعل لم أكن لأقدم عليه ، ولكن
هذه مشكلتك ٠٠ اذن استمر ٠ اذا كنت قد عقدت
عزمك فتقدم .

بعد هذا بقليل أخذ السيد « جراد جريند » و « ابنته » و « سيسيليا جوب » الى « ستون لودج » وطوال الطريق لم تنطق لويزا بكلمة واحدة .. طيبة أو غير طيبة ، بينما لم يكف السيد جراد جريند عن ترديد قوله : لا تسرحى يا جوب .. لا تسرحى أبدا !!

« لا تسرح أبدا » .. هذه الجملة الصغيرة ربما كانت القانون الذى يحكم حياة السيد جراد جريند ، وهى أيضا سر تربيته .. فما دام الانسان يستطيع أن يجمع وي طرح وأن يضرب ويقسم .. اذن فهو يستطيع القيام بأى شئ آخر .. اذن فلا أحد يحتاج أن يسرح بخياله .. تلك كانت فلسفة السيد « جراد جريند » ولم تكن غريبة عليه ، أما الغريب حقا فهو أن سكان (كوكناون) كانوا يوافقون السيد جراد جريند على فلسفته هذه .. اذن فلماذا تمتلئ مكتبات المدينة بالكتب والقصاص الخيالية ؟ ان هذا السؤال كان يؤرق السيد جراد جريند ويعكر عليه صفو حياته ان الناس يستطيعون القراءة .. وهم يقرأون بالفعل قصصا عن الجن ، وهم يستمتعون بمغامرات روبنسون كروزو

٦٢

وجاليفر ويسرحون بخيالهم معهم ، وينفعلون بهم فرحا وحزنا .

لكن بالطبع لا مكان لهذه الكتب فى مكتبة بيت السيد جراد جريند ، ولويزا وتوم الابن لا يعرفان شيئا عن قصص الجان أو عن مغامرات الأبطال . وقد دار هذا الحوار بين الأخوين ذات مساء بعد انتهاء العمل فى أحد الأيام بغرفة الدرس ، قال توم :

— لقد تعبت من هذه الحياة يا لو .. اننى أكرهها .. أكره الكل ما عداك يا لو .

— انك لا تكره سيسى يا توم .. أليس كذلك

— لقد فرض علينا أن نتأديها بـ جوب .. وأنا أكره هذا ، وأعتقد أنها تكرهنى .

— لا انها لا تكرهك يا توم .. أنا واثقة من هذا

— بل أعتقد أنها تكرهنا جميعا ، اننا نجعلها تمرض قبل الأوان ، لقد بدأ السقم يبدو عليها بالفعل

— ان دروسها تتعبها ..

٦٣

انت المتعة الوحيدة التى لى ، بل ان بإمكانك أن تجعلى هذا المكان براقا كما أن بإمكانك قيادتى كيفما تشائين .

— لا أعتقد أن ما تقوله صحيح يا توم .. ولكنك أخى الحبيب .

ثم عبرت الحجرة وقبلت أختها ثم عادت الى مقعدها بجوار النافذة فقالت توم :

— اننى أود أن أصنع كومة من كل الحقائق والمعارف ، كل حقائق ومعارف الكون وكل الرجال الذين اكتشفوها .. الكل فى كومة واحدة ثم أشعل النار فى هذه الكومة حتى تصبح رمادا .. على أى حال .. فندمنا أذهب للعيش عند « دى دى » العجوز سائر عصر الأشياء ..

فقالت « لويزا » :

— كم أتمنى ألا يخيب السيد روبنسون أملك . ولكنه أكثر جفاء من أبى ولا تبلغ طيبته نصف طيبة أبى

بقات عصيه ٦٤

— أنا حمار يا لو .. اننى غبى كالحمار ، وأشعر أنى بالفعل حمار ، ولا ينقصنى سوى أن أرفس الناس! فقالت لويزا ضاحكة :

— الا أنا .. آمل هذا يا توم .

— لا .. ما كنت لأؤذيك يا لو ، فأننى لأستطيع الحياة فى هذا .. هذا السجن بدونك ..

— كثيرا ما كنت أتساءل لماذا لا يمكننى أن أجعلك أسعد حالا ، اننى كبرت ولكنى لا أستطيع أن أفعل أى شئ يثير البهجة ، فانا لا أجيد عزف الموسيقى ، ولا أحسن الغناء ولا أعرف أى قصص يمكن أن أحكيها لك .. اننى حتى لا أعرف أى شخص يمكننى أن أحدثك عنه .

— ولا أنا ، بل اننى حمار أيضا .. أبى قرر لى ان أصبح حمارا .

— انها لماسة كبيرة يا توم فكلانا لا يستطيع مساعدة الآخر .

— أنت شئ مختلف ، فانت فتاة .. فتاة رائعة !

٦٤

هكذا صرخت السيدة جرادجريند وهي تدخل من
باب حجرة الدرس ثم استأنفت قائلة :

- انك تعلمين تماما أن أباك قد منع المرحان .
- أجل .. أعلم يا أمي ، ولكنني كائن حي وقد
كنت فقط أفكر في أمور الحياة .. وكم هي قصيرة ؟
.. أليس كذلك ؟ ترى أي أشياء طيبة نستطيع أن
نفعلها في حياتنا القصيرة ؟

فقالت الأم في دهشة :

- هذا هراء ! آه يا رأسي المسكين ! لويزا ..
اياك .. اياك أن تسأل والدك مثل هذه الأسئلة
الغبية !

فضحك « توم » وقال بتغابث :

- أستطيع أن أتعامل مع العجوز « باوندرباي » !
- كيف ؟ .. أم أن هذا سر ؟

فقال توم بمرح :

- إذا كان سرا .. فهو ليس ببعيد ! انه ..
أنت يا لوي .. فأنت سيدته الصغيرة .. أليس كذلك ؟
ولسوف يفعل أي شيء .. أي شيء من أجلك ،
وأنت ستفعلين أي شيء من أجل ، وعلى هذا - وبوضع
النهايات معا كما يقول أبي - تكون المحصلة هي : أن
السيد باوندرباي سيفعل أي شيء من أجل !

وانتظر توم أن يسمع اجابة من أخته ، ولكنه لم
يحظ بأية اجابة .. **واخيرا قال :**

- هل ننت يا لوي ؟

- لا .. فقط سرحت بخيالي ..

- « لا تسرحي يا لويزا » !!

وأیضا كرهتها الحقائق والأرقام ، فكانت ترفض أن
تسكن في رأسها . وقد أخبر المدرس السيد جرادجريند
أن البتت رقم (٢٠) لا يمكنها حفظ الأرقام
فقال له :

- انها حقا تعرف شكل الأرض ولكنها لا تريد
أن تتعلم مقدار حجمها بدقة .

ورد عليه « جرادجريند » قائلا :

- هذا سيء للغاية ، ولكن .. لا تدعها تستريح
.. لقتها بالحقائق والأرقام .. باستمرار !

في البيت ، لم تكن « لويزا » قد تحدثت مع
« سيسي » من قبل ، فالحياة في (ستون لودج) تشبه
الآلة البخارية ، تعمل بانتظام ما دام الناس لا يتدخلون
في عملها . ولكن في إحدى الأمسيات عرضت لويزا
على سيسي أن تساعد في فهم درس صعب ..
وبعدها دار بينهما هذا الحوار .. **الذي بداته سيسي
قائلة :**

- آه .. انك ذكية جدا يا آنسة لويزا .. ولكم
أتمنى أن أحسن في فهم الدروس .

الفصل الخامس

أصبحت حياة « سيسي » - سواء في المدرسة
أو في ستون لودج - عبارة عن عاصفة من الحقائق
والأرقام ، ولم يكن هناك سوى شعاع براق يلمع مثل
النجم وسط هذه العاصفة .. هذا الشعاع هو أملها
في عودة أبيها . وان كان السيد جرادجريند قد اعتاد
أن يردد على مسامعها قوله :

- لن يعود يا « جوب » .. لقد رحل ولن يعود
.. وهذا هو الواقع ببساطة !

وسرعان ما كرهت سيسي الحقائق والأرقام ،

وتابعت « سيسى » حديثها قائلة :

- ثم اختبرنى المعلم ثانية .. قال : (ان سكان كوكتاون يبلغون نصف مليون نسمة وفى كل عام يموت اثنا عشرة شخصا .. نتيجة سوء التغذية) .. ثم سألتنى : (هل هذا شيء طيب أم شيء سيئ ؟) .. وأجبت بقولى : (انه شيء سيئ جدا .. بالنسبة لهؤلاء الاثنى عشرة وعائلاتهم) ولكن الاجابة الصحيحة كانت .. انه شيء طيب !! .. ولم أستطع أن أفهم !

- ليس هذا سهل الفهم .

فقالت « سيسى » بحسرة :

- كان أبى المسكين يريدنى أن أتعلم يا آنسة لويزا ، وأنا أيضا أحب أن أتعلم ولكن .. ولكنى لا أتوصل أبدا للاجابات الصحيحة .

- وهل كان أبوك يعرف الاجابات الصحيحة ؟

وهنا .. تذكرت « سيسى » أوامر السيد « جراد جريند » ، يجب عليها ألا تتحدث عن حياتها

- ان هذا لن يفيدك فى شيء يا سيسى .

- وهو أيضا لن يضرنى يا آنسة لويزا .

- لست متأكدة من هذا .. انك أكثر عطفًا على

أمى .. وأكثر احترامًا لنفسك منى .

- لكننى .. غبية جدًا يا آنسة لويزا . وفى

المدرسة أقع فى الكثير من الأخطاء .. هكذا يقول معلمى

- حدثينى عن بعض هذه الأخطاء .

- حسنا ، اليوم مثلا - قال لى المعلم : (هذا

البلد يملك خمسين مليون جنيه ، فهل هو اذن بلد

غنى وسعيد ؟ .. البنيت رقم (٢٠) ، هل تعيشين فى

بلد غنى وسعيد ؟

- وماذا أحبت يا سيسى ؟

- قلت .. لا أعرف ، لأنى لم أكن أعرف من

يملك هذا المال ، وعما اذا كان لى نصيب فيه أم لا .

وبالطبع كانت هذه اجابة خاطئة .. فهى ليست فى

الكتاب .

فقالت « لويزا » :

- نعم ، كانت اجابة خاطئة .

- هل كان أبوك يحبها ؟

- آه .. أجل ! كما كان يحبنى تماما ، بل انه

أحبنى فى البداية لأجل خاطرها هى . ثم لم نفترق

منذ ولدت .

- ولكنه تركك ورحل يا سيسى .

- فقط من أجلي يا آنسة لويزا .. من أجلي

لا من أجل نفسه ، لا أحد يعرف أبى أكثر منى . انه

لن يشعر بالسعادة أبدا .. حتى يعود .

- احكى لى يا « سيسى » .. احكى أكثر عنه ،

ولن أسألك ثانية .. اين كنتما تعيشان ؟

- كنا دائمي الترحال مع السيرك ، ولم يكن لنا

أبدا وطن حقيقى .. أو بيت نملكه فى أى مكان ولم

يكن أبى فارسا منازا .. فى الحقيقة !

ومرة أخرى خفت صوت سيسى حتى أصبح

همسا وأكملت :

- كان مهرجا .

السابقة ولا عن أبيها .. فنظرت بحزن الى لويزا ولم

ترد على سؤالها .

فقالت لها لويزا بصوت يملؤه الحنان :

- هذا ليس سؤالًا ضارًا يا سيسى ، كما أن

أحدًا لن يستطيع سماعنا .

فقالت سيسى بتردد :

- كان .. أبى يستطيع الكتابة قليلا ، ولكنه

لم يكن يعرف الكثير .

- وأمك .. هل كانت ماهرة ؟

- قال لى أبى انها كانت كذلك .. فأتا لم أرها

لأنها ماتت وهى تلدنى ، كانت تعمل ...

وبصوت هامس أكملت :

- كانت تعمل راقصة !

فسألته لويزا بقوة حلم مفاجئة .. قوة الحلم

الضائعة أو المختبئة فى دهايز النفس المظلمة ...

سألته :

- تمنين كان يضحك الناس .

- أجل . ولكنهم فى بعض الأحيان كانوا لا يضحكون ، وعندئذ كان أبى يبكى . وقد بكى كثيرا منذ جئنا الى هنا فى كوكتاون .

- وأنت .. هل كنت تسرين عنه عندئذ ؟

- كنت أحاول ...

ومن خلال دموعها قالت « سيسى » :

-- لكنه بدأ يخاف ، بدأ يظن أنه مهرج سيء ، كان يريدنى أن أصبح ذكية وماهرة .. مختلفة عنه .. اعتدت أن أقرأ له كثيرا .. كانت كتبنا خاطئة ولكننا لم نكن نعرف هذا .

- وهل كانت هذه الكتب تعجبه ؟

- أوه ! جدا !! كان ينسى كل متاعبه وأحزانه عندما أقرأ له ، واعتاد أن يسرح فى الخيال بالساعات مع الملك والجنيات .

- وهل كان طيبا مع الناس الآخرين ؟

٧٤

- دائما .. دائما ! وأبدا .. لم يحمل فى نفسه ضغينة لأحد .

- هل كنت تتوقعين أنه سيتركك ؟

- لا ، ولكنى كنت أحس بتعاسته .. !

فى هذه اللحظة دخل « توم » الى حجرة الدرس وكالمادة .. كان يفكر فى نفسه فقط وينظر شذرا للفتاتين .

فابتسمت له لويزا وقالت :

- كنت أسأل سيسى بعض الأسئلة ، يمكنك أن تمكث يا عزيزتى توم .. ولكن لا تقاطعنا .

- حسنا ، لقد حضر « باوندرباى » العجوز مع أبى ، فهلا أتيت وتحدثت معه ؟ .. لو فعلت ربما دعانى للعشاء عنده الليلة .

- حالا .. سوف آت خلال دقيقة .

- اذن سوف أنتظر ، فقط لإتأكد انك ستأتين

٧٥

يحمل رسالة يتوقف قلبى عن الخفقان وأشعر أنى واثقة أنها من

ومرة أخرى قاطعها توم بنفاذ صبر بصوت عال:

- أو ، هيا يا لوى .. ماذا تنتظرين ؟

ومنذ تلك الليلة .. صارت لويزا تنظر بقوة فى عيني أبيها عندما كان يفتح رسائله وفى بعض الأحيان ، كانت سيسى تجد فى نفسها قدرا من الشجاعة فتسأل السيد جراد جريند قائلة .

- سيد جراد جريند ، هل هناك أى خطاب يخصنى يا سيدى ؟

وكانت لويزا تنتظر الرد بنفس اللهفة والرجاء اللذين كان يخفق بهما قلب سيسى ، ولكن .. دائما كانت الاجابة :

- لا ، يا جوب .. ليس هناك أية رسائل تخصك

وعندما كانت سيسى تذهب للمدرسة كان جراد جريند يقول بصوت الحكمة :

٧٧

وهكذا استأنفت حديثها هامسة :

- كان أبى تعيسا لأن الناس لم يعودوا يضحكون على حركاته ، وهذا هو أسوأ شئ يمكن أن يحدث للمهرج . وقد سمعته يبكى فى المساء . كان يحاول أن يخفى وجهه عني ، ولكنى سمعته ، وهو يقول . (يا عزيزتى ويا جوبى يا سيسى) . وفى الصباح ضمنى الى صدره بقوة وقبلنى ، لم أقلق .. لأنه كان يفعل هذا دائما كل صباح قبل ذهابى الى المدرسة . وعندما عدت الى المدرسة .. لم يكن هناك !!

وهنا قاطعها توم قائلا :

- هيا . اسرعى يالوى .. فالعجوز باوندرباى سيرحل ان لم يرك الآن .

فهمست سيسى قائلة :

- هذا هو كل شئ يا آنسة لويزا ، أنا أعرف أنه سيعود أو على الأقل سيكتب لى ، أو سيكتب لى السيد سليرى . لهذا كلما شاهدت السيد جراد جريند

٧٦

- الأمل ! .. انه سم يسرى فى الدم ! لماذا
لا تستطيع هذه الفتاة أن تفكر بحقائق الواقع فقط ؟

كانت « لويزا » هى الوحيدة فى ستون لودج
التي تعلم مدى قوة الأمل عند سيسى - لقد كان الأمل
- وهى تعلم هذا - قويا .. مجسما كالواقع تماما ..
أما « توم » الابن فهو لا يفكر الا فى نفسه ، والسيدة
جراد جريند المسكينة يكفيها رأسها المريض .. الذى
لا يسكنه غير الألم !

الفصل السادس

كان « ستيفن بلاكبول » نساجا .. يعمل فى
مصنع نسيج « جوزيه باوندرباى » .. يبلغ من العمر
أربعين عاما - وإن كان يبدو أكبر من هذا - وكان
انحناء منكبية وشعره الرمادى ينبئان عن حياة قاسية
عاشها .

ولم يكن « ستيفن بلاكبول » متعلما ، وإن كان
بعض العمال يعلمون أنفسهم بأنفسهم ، ويستعيرون
كتباً كثيرة من مكتبة المدينة ويقرأونها ، وبعضهم أيضا
يجيد فن الخطابة ، الا أن ستيفن لم يكن واحدا من

- نعم ، أما أنت فصغيرة كما كنت وكما ستكونين
دائما يا راشيل .

فقالت راشيل ضاحكة :

- كلانا قد كبر يا رجل ، ولا حاجة بنا لاختفاء
هذه الحقيقة .

- هل يمكننى أن أسير معك قليلا فى طريق
العودة الى البيت .

- أجل ، فربما لا يجب أن نشاهد معا كثيرا
ولكن يجب أن أراك من وقت لآخر بالطبع

- لقد كنت دائما .. طيبة معي يا « راشيل » ..
ولوقت طويل .. لهذا فطلبائك عندى قوانين ، وأنا
أعلم أن الناس قد يتكلمون كثيرا حتى عنك أنت .

- أوه ، لا تذكر القوانين يا ستيفن .

- معك الحق يا حبيبتي ، فالقوانين دائما
(ملخطة) .. كم فكرت وفكرت ، ودائما أصل
الى نفس النتيجة .. (الملخطة) !!

هؤلاء .. برغم أنه كان يحب القراءة .. وأهم ما كان
ييز ستيفن بلاكبول فهو أنه نساج ماهر ورجل
شريف .

دق جرس المصنع فى مساء أحد الأيام .. فتوقفت
الآلات وأطفئت الأنوار وأندفع الرجال والنساء من
البوابات الحديدية الى الشارع .. وسار بلاكبول
وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص ما وبعد برهة
صاح مناديا :

- « راشيل » !

فاستدارت نحو مصدر الصوت امرأة كانت تقف
تحت مصباح من مصابيح الطريق ، رأى ستيفن وجهها
الصغير الجليل وعينها الرقيقتين - لم تكن « راشيل »
فتاة صغيرة فقد كانت تبلغ من العمر خمسة وثلاثين
عاما ، صاحت عندما وجدت أن من يناديها هو
ستيفن ، وقالت :

- آه يا رجل ، أهذا أنت يا صديقى العجوز ؟

وعندما وصلا الى بيتها ، صاحته مودعة وهي
تقول :

— سعد مساؤك يا ستيفن !

فرد عليها ستيفن بقوله :

— سعد مساؤك يا حبيبتي الأثيرة .. سعد
مساؤك !

ثم تابعها بعينييه وهو واقف حتى دخلت الى
منزلها . انه يحب راشيل .. يحب كل شيء فيها ..
أصابها الرقيقة .. وجهها .. صوتها .. كل شيء .

كان « ستيفن » يعيش في غرفة واحدة فوق
متجر صغير . وعندما وصل الى البيت .. أشعل المصباح
ووجد صاحبة المتجر نائمة فلم يوقظها ودخل مباشرة
الى غرفته . كان أثاث غرفته يتألف من سرير ومنضدة
وبضعة كراسي ومكتب صغير . وضع « ستيفن » المصباح
على المنضدة ، وبينما هو يضع المصباح .. اصطدم
بشيء ما وكاد أن يسقط فوقه !! .. امرأة ! ..
نهضت من فوق الأرض مستندة على ذراع واحدة ،
وما أن رآها ستيفن حتى صاح في فرح :

٨٢

— يا للسبأ ! هل عدت ثانية !

حاولت المرأة أن تعتدل جالسة ، كانت ثملة
وقدرة ، ثيابها كانت ممزقة ، رفعت شعرها بحركة
عصبية فوق وجهها على صدرها ثم ضحكت ضحكة
هستيرية وقالت :

— أجل يا رجل .. مرة ثانية ...

ثم صرخت فيه قائلة :

... مرة ثانية وثالثة ورابعة .. لم لا ؟

ثم نهضت واقفة مستندة على المنضدة واستدارت
الى ستيفن فجأة بنظرة ملؤها الغضب وصاحت فيه :

— سوف أبيع كل ما نملك .

ثم صرخت عاليا :

.. سوف أبيع كل شيء .. عشرين مرة .. قم
قم من فوق السرير ! .. قم .. انه ملكي .

وسارت نحو السرير ، فابتعد « ستيفن » عن
طريقها وجلس فوق مقعد بجوار النافذة .

٨٣

فسألته مسز « سبارسيت » :

.. ما اسمك ؟

.. ستيفن بلاكبول مدام .

ولما لم يكن « ستيفن » قد سمع آية مناسعب
للسيد « باوندرباي » من قبل فقد ساء له بمقابله
فصيحته مسز « سبارسيت » الى داخل البيت .
وعندما رآه السيد « باوندرباي » بادره قائلا :

— ما الأمر يا ستيفن ؟ أنا أعلم انك لم تأت
للمشكوى ، فأنت لست (يدا) غبيا تريد ملعة ذهبية
في فمك !

.. لا ، يا سيدي . أنا لا أفكر في الذهب . !

.. حسنا ، اذن .. ما هي المشكلة ؟

فنظر ستيفن الى مسز « سباريسيت » ،

فقال له باوندرباي :

— هذه سيدة .. عظيمة ، برغم انها تعمل الآن
مديرة منزل ، فانها قد ولدت في ظل الرفاهية ، واذا
كنت لا تمنع في وجودها هنا .. فانها ستبقى .

٨٥

فالتفت المرأة بنفسها فوق السرير وراحت في
النوم في الحال . أما « ستيفن » فقد جلس بجوار
النافذة طوال الليل . ثم تحرك من مكانه سري
مرة واحدة ليضع غطاء فوق المرأة النائمة .

في الصباح التالي كان « ستيفن » يقف أمام نوله
مبكرا .. كان هناك العديد من الأنوال والعديد من
العمال في مصنع باوندرباي .. وكان باوندرباي يسمى
عماله « الأيدي » .. وعندما دق جرس المصنع معلنا
عن بدء فترة الراحة وهي ساعة يسمح بها باوندرباي
لعماله كي يتناولوا غداءهم ، فخرج العمال لطعامهم ،
بينما سار « ستيفن » في الطرقات حوالي عشرين دقيقة
لم يكن يشتهي أى طعام في هذا اليوم . ثم توجه الى
منزل باوندرباي وطرق الباب ففتحت له مديرة المنزل
فقال لها في أدب :

— عمل لي أن أقابل السيد « باوندرباي »
ياسيدتي ؟

٨٤

- لا أمانع يا سيدى ، فكلامى لن يكون جارحا
لسيدة رفيعة المقام مثلها .

- اذن تكلم يا ستيفن ، أنا أصغى اليك .

- لقد جئت طالبا النصح يا سيدى .. فأنا فى
أشد الحاجة لنصحك . فمئذ تسعة عشر عاما تزوجت
فتاة جميلة .. كانت جميلة وطيبة ، ولكن .. سرعان
ما انقلبت الى امرأة شريرة . لم تكن غلطتى والله يعلم
أننى لم أكن زوجا فظا .

- لقد سمعت عن هذا من قبل ، لقد أصبحت
امراة سيئة .. تشرب الخمر وتوقفت عن العمل وباعت
أثاث بيتك وسببت لك الكثير من المتاعب .

- وكم حاولت أن أساعدها .. حاولت كثيرا ، لقد
باعت ملابسى وأثاث بيتى .. ليس مرة واحدة بل
عشرين مرة ، وكانت دائما تنفق كل المال على الشراب
كانت تسير من سىء الى أسوأ .. ثم تركتنى .. ولكنها
عادت ثانية .. كانت دائما تمود .. ماذا أصنع ؟ كثيرا

٨٦

ما كنت أشعر بالخوف من العودة الى البيت . وقد
دفعت لها لتبقى بيديا عنى ، كنت أدفع لها طوال خمسة
أعوام .. لقد عشت حياة صعبة وحزينة ، ولكنى أبدا
لم أشعر بالعار أو الخوف ، وأمس .. أمس عدت لبيتى
مساء .. فوجدتها هناك ! .. كانت مستلقية على الأرض
.. ثملة ؟

توقف ستيفن عن الكلام للحظات بدا فيها قويا
وفخورا بنفسه ، ولكن سرعان ما انحنى منكبها وبدا
وجهه خاليا من أى تعبير .

وعقب السيد باوندرباى قائلا :

- كنت أعرف هذا منذ وقت طويل ، فيما عدا
الجزء الأخير ان هذا الأمر سىء للغاية . انها لمأساة مجرد
أنك تزوجت ، ولكن .. فات أوان هذا الكلام الآن .

**وهنا سألت مسز « سبارسيت » السيد
« باوندرباى » قائلا :**

- هل كان يكبرها فى السن بكثير يا سيدى ؟

٨٧

فحول « باوندرباى » السؤال الى « ستيفن »

قائلا :

- هل سمعت سؤال السيدة يا « ستيفن » ؟ هل
كنت تكبرها بكثير حين تزوجتها ؟

فاجاب « ستيفن » :

- لا ياسيدى ، كنت فى عامى الواحد والعشرين
وكانت هى فى العشرين من عمرها .

فقالت مسز « سبارسيت » :

- ان هذا يدهشنى يا سيدى . فان الفارق الكبير
فى السن عادة يكون هو سبب التماسه الزوجية .

نظر باوندرباى الى مديرة منزله بغضب ، وان
كان هناك تعبير غريب - نصف خجل - قد ارتسم
على وجهه .

ثم استدار فاحية بلاكبول قائلا :

- استمر يا ستيفن .. انى أصغى لك !
- كيف أستطيع أن أتخلص من هذه المرأة
يا سيدى ؟ هل يمكنك أن تنصحنى ؟

٨٨

- تتخلص منها ؟! ولكنها زوجتك يا رجل !
لقد تزوجتها حتى الموت .. موتك أنت أو موتها هى .
- يجب أن أتخلص منها والا .. سأحن . كان
من الممكن أن أجن بالفعل . لولا انى أجسد بعض
السلوى .

- ممن ؟

- من أفضل فتاة فى العالم يا سيدى ؟

وهنا صاحبت مسز سبارسيت وكأنها أمسكت

بلص :

- آه ! انه يود أن يصبح حرا يا سيدى حتى
يسمى له أن يتزوج من امرأة أخرى .

فقال ستيفن :

- أجل السيد على حق .. ان الامر لا يكون
مشكلة بالنسبة لرجل سىء فهو حين لا يسفاد
السعادة فى زواجه مع روحه يمكنها أن يعيشا فى
حرره منفصله فى بيت كبير أو حتى يعيشان منفصلين

٨٩

ويتقاسمان دخلهما ، بل يمكنهما أحيانا إنهاء زواجهما
بالقانون . فهل باستطاعة رجل فقير مثل أن يفعل أى
شئ من هذا . يجب أن أتخلص من تلك المرأة ، وكل
ما أريد . . هو أن أعرف . . كيف ؟

فرد باوندرباى قائلا :

- لا يمكنك هذا !

- إذا ضربتها . . فهل يعاقبنى القانون ؟

- بالطبع ستعاقب !

- وإذا تركتها . . فهل يعاقبنى القانون ؟

- بالتأكيد .

- إذن . . ماذا يحدث لو أنى تزوجت من المرأة
الأخرى التى أحبها ؟

عند سماعها هذه الكلمات اغلقت مسر
سبارسيت عينيها وكأنها تسمع شيئا مخزيا .

٩٠

وقال السيد باوندرباى لستيفن :

- سوف تعاقب .

فقال ستيفن يائسا :

- سيد باوندرباى . . ليس هناك أى قانون
يمكن أن يساعدنى ؟

- الزواج يبقى مدى الحياة يا بلاكبول . . انه
شئ جاد جدا .

- ولكن بعض الزيجات لا تستمر مدى الحياة
. . أنا أعرف هذا . . لقد قرأت شيئا كهذا . فبعض
الرجال يقتلون زوجاتهم كما أن بعض الزوجات يقتلن
أزواجهن . . لن أقتل زوجتى أبدا ولكن لابد أن هناك
قانونا يساعدنى .

فقال باوندرباى :

- هناك قانون ، ولكنه ليس لك . . فهو يتكلف
الكثير من المال .

٩١

فقال ستيفن بهتوا :

- كم ؟

- ألف جنيه ، ربما المئتين أو ثلاثة آلاف جنيه .

ثم ذهب وجه ستيفن وقال :

- إذن ، فأنا كنت محقا . .

ثم استأنف وهو يشغف على مخارج الكلمات

مؤكدا :

- أن هذا (لخبطة) . . لا أمل لي بالمرء ، سيكون

أفضل لي أن أموت !

عرفت السيدة سبارسيت عينيها للنساء . .

وقال السيد باوندرباى :

- أن ما تقوله غراء يا رجل ، فقوانين هذا البلد

ليست (لخبطة) انك فقط لا تفهمها . أن عملك يبدأ

وينتهى أمام نولك . اسمع يا ستيفن بلاكبول . . لقد

كنت دائما . . وحتى الآن ، نعم (اليد) وآمل

٩٢

الا تكون فى طريقك لتدبير شيئا مثل بعض رملائك
من الأيدي . .

فهر ستيفن يائسا وقال :

- أشكرك يا سيدى . . نوارك سعيد .

وبينما هو يسير خارجا قال عوددا :

- انها (لخبطة) . . (لخبطة) كبيرة !!

٩٣

الفصل السابع

بينما كان ستيفن يعبر الشارع خارج بيت السيد باوندرباي ، لمست ذراعه امرأة عجوز فالتفت إليها . كانت طويلة ، منتصبه القامة ، رغم كونها كبيرة في السن ، وكانت ملابسها أنيقة ونظيفة فيما عدا بعض الغبار العالق بحدائها ، ربما من السير في طرقات المدينة .

سألته السيدة برقة :

- من فضلك يا سيدي ، ألسنت خارجا لتوك من منزل السيد باوندرباي ؟

٩٤

ومشت السيدة العجوز الى جانبه تحدثه وتقول له أنها حضرت الى كوكتاون بالقطار هذا الصباح . ان لها كوخا صغيرا في البلدة التي تبعد خمسين ميلا عن كوكتاون ، وأنه كان يجب عليها أن تسير تسعة أميال على قدميها لتصل الى محطة القطار . ثم أضافت قائلة :

- وسأمشي تسعة أميال أخرى في طريق عودتي الى بيتي الليلة . أليس هذا شيئا طيبا في مثل سنى ؟

- طيب جدا ، ولكن لا تفعل هذا كثيرا يا سيدي .

- لا ، لا أفعل هذا سوى مرة في العام ، فأنا أدخر بعض المال لي مدار السنة ، ثم أسافر وأحضر الى كوكتاون ، فأنا أحب رؤية الشتاء . وكنت أتمنى رؤية السيد باوندرباي اليوم ، ولكنني رأيتك أنت . وأنت رأيته . ادن يجب أن أكون سعيدة لهذا !

لم يستطع ستيفن أن يفهم . لماذا تمني هذه

٩٥

- أجل يا مدام .

- عفوا سيدي . ولكن هل تحدثت الى هذا السيد المهذب اليوم ؟

- أجل يا مدام .

- وكيف كان يبدو يا سيدي ؟ هل هو بخير

. هل كان كبيرا وجسورا ؟

بدت السيدة وكأن قلبها سيقفز من بين ضلوعها وهي تتحدث . وهل كان صوته جيدا وقويا ؟

وخيل لستيفن أنه ربما يكون قد رأى هذه السيدة من قبل .

وأجابها :

- أجل يا سيدي . كان في خير حال و .

كما تصفينه تماما .

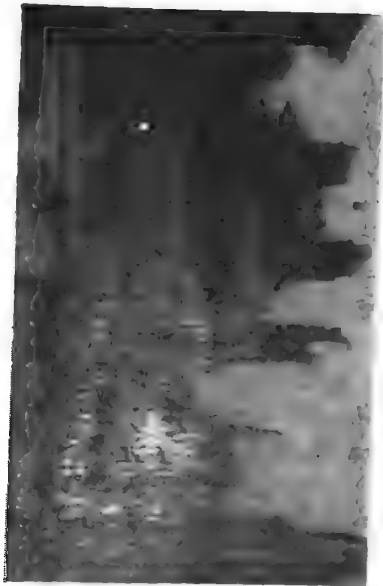
- شكرا يا سيدي . شكرا جزيلا .

وأخذ ستيفن يفكر ويحدث نفسه قائلا . لا أنا

لم أر هذه السيدة من قبل ، ربما رأيته في حلم كما أني لا أعتقد أنها تعجبني كثيرا

٩٥

الفتاة في بروتون



السيدة رؤية السيد باوندرباي وهى لم تشرح له ..
بعد هنيهة قال لها :

- يجب أن أسرع والا تأخرت عن العمل ، فانا
نساج فى مصنع السيد باوندرباي ..

فنظرت اليه السيدة مليا وقالت :

- أولست سعيدا هناك ؟

- لكل انسان متاعبه يا سيدتى .

- أجل ، تعنى أن لديك بعض المشكلات فى بيتك
أليس هذا ما تعنيه ؟

- أحيانا يا سيدتى .

- وهذه المشكلات لا تلاحقك فى العمل ، أم أنها
تؤثر على عملك ؟

- لا ، يا سيدتى .

وصلا الى بوابة المصنع ، كانت « الأيدى » تسرع
داخلة وكان الجرس يدق .. وبعد هنيهة بدأت الآلات
تدور . قالت السيدة :

٩٨

- انه لجرس جميل .. انه أجمل جرس سمعته
فى حياتى ، منذ متى وأنت تعمل هنا يا سيدتى ؟

- منذ .. دسنة من الأعوام يا سيدتى .

- أوه ، يجب أن أقبل هذه اليد التى عملت فى
هذا المصنع العظيم طوال اثنى عشر عاما .

وبالفعل قبلت السيدة العجوز يد ستيفن برغم
أنه حاول أن يمنعه ، ولكنها فعلت هذا ببساطة
ويجب .. لقد جعلت هذه القبلة تبدو وكأنها الشيء
الصحيح فى المكان والتوقيت الصحيحين .. بعد هذا
تركها ستيفن ودخل الى المصنع .

أخذ ستيفن يعمل أمام نوله فى استغراق طوال
نصف ساعة متصلة ، وبينما هو يرفع بصره - صدفة
- وينظر من خلال النافذة ، اذا به يجد المرأة التى
مازالت واقفة فى الشارع تنظر الى جدران المصنع
الداكنة الى سحائب الدخان السوداء وتعبير غريب
يكسو وجهها .. كانت أصوات الماكينات تبدو وكأنها
موسيقى حماسية جميلة تنساب فى أذنيها .. وأخذ

٩٩

ستيفن بعد هذا يفكر فى هذه المرأة كثيرا هذا المساء
.. كما أنه يفكر أيضا .. فى تلك المرأة القابضة
فى بيته .

أخيرا انتهى اليوم ، كانت السماء تمطر حين خرج
ستيفن من المصنع وأخذ يبحث عن راشيل ، فقد كان
فى أمس الحاجة للسلوى والطمأنينة التى لا يستطيع
أحد منحه اياها الا راشيل ، ولكن .. لابد أن راشيل
عادت الى بيتها مبكرا اليوم لان ستيفن لم يرها .

بعد هذا قضى ستيفن وقتا طويلا وهو يتجول
فى طرقات المدينة .. تحت المطر ، يفكر فى حياته
الضائعة ، وفى حياة راشيل الضائعة أيضا .

منذ سنوات عديدة ، حدث راشيل عن متاعبه ،
لم يتحدثا عن الزواج - بالطبع - ولكنها كانت
ستتزوج لو أنه كان حرا ، ولعلها - لو كان قد حدث
- كانا سينعمان سويا ببيت دافئ مريح .. أطفال ..
حب .. احترام متبادل وشرف ، ولكنه بدلا من هذا
كان مقيدا بالأغلال من يديه وقدميه الى امرأة سكير

١٠٠

قدرة ، وراشيل ترى كل صديقاتها وقد تزوجن
وأصبح لهن بيوت وعائلات .. بينما هى تتمنى و ..
تنتظر ستيفن .

كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة حينما عاد
ستيفن الى غرفته ليجد الصباح مضاء وراشيل تجلس
على حافة السرير وكأنما اضاء النور المنبعث من وجهها
جنبات عقله المظلمة . قالت له راشيل :

- كم أنا سعيدة بعودتك أخيرا يا ستيفن . لقد
تأخرت كثيرا .

- كنت أتسكع فى طرقات المدينة .

- لقد خمنت هذا . ولكنها ليلة غير ملائمة
لمثل هذا ، لقد جئت هنا بعد الغداء مباشرة ، بعد
أن تسلمت رسالة من السيدة صاحبة المتجر ، تقول
فيها أن شخصا ما بحاجة الى المساعدة هنا وبالفعل
كانت على حق .. وقد جاء الطبيب أيضا .. لقد أذت
زوجتك نفسها ..

١٠١

ولم يستطع ستيفن أن يرفع عينه في وجه راشيل ، التي استأنفت كلامها :

- جئت لمساعدتها يا ستيفن ، فقد كنا نعمل سويا حين كنا صغارا ، وكانت صديقتي قبل أن تتزوجها . بالطبع أنت أكثر عطفًا وكرما من أن تتركها تموت أو تتألم . أنا أعلم هذا .

- اوه ! راشيل . راشيل !

حركت راشيل المنضدة الى حافة السرير ، كانت هناك عدة زجاجات عليها ، كتب على احداها باللون الأحمر : « سم » قرأ ستيفن هذه الكلمة فشحب لونه ، بينما سكبت راشيل بعضا من محتويات الزجاجاة ومسحت بها على جرح في عنق المرأة وقالت :

- يجب أن أفعل هذا مرة ثانية في الساعة الثالثة صباحا ، ولهذا سأبقى حتى هذا الوقت .

- ولكنك يجب أن تنال قسطا من الراحة ياراشيل ، فلديك عمل في الغد .

- لا ، بل استرح أنت يا ستيفن ، فانا نمت

١٠٢

جيذا الليلة الماضية في حين انك تبدو مجهدا . حاول أن تنام على هذا الكرسي . هناك ، بينما أسهر أنا عليها . تصور أنها لم تعرفني يا ستيفن ، عندما أفاقتم تمتعت بعض الهلوسة ثم راحت في النوم ثانية قال الطبيب انها ستتحسن غدا .

استقرت عينا ستيفن مرة أخرى فوق أحرف كلمة (سم) المكتوبة على الزجاجاة ، فارتعد واهتز كل جسمه فوقفت راشيل تريد أن تتحرك نحوه لتطمئن عليه ، ولكن ستيفن قال لها :

- لا . اجلسي يا راشيل . ابقى حيث أنت بجوار الفراش ، حيث رأيتك أولا . لا يمكن أبدا أن تكوني أكثر جمالا من هذا .

كانت ليلة رهيبة . أخيرا نام ستيفن ، ولكنه رأى في نومه كابوسا مفرعا . رأى أحرف كلمة « سم » وكأنها كتبت من نار ، وأبحر ستيفن في أعوام المستقبل يبحث عن راشيل . لكنه لم يعد براها أو يسمعها كان أحرف كلمة (سم) تطارده في كل مكان .

١٠٣

رفعت المرأة زجاجة السم ببطء نحو فمها . لحظة أخرى ولن يكون بمقدور انسان مساعدتها ولكن في اللحظة التالية . انطلقت صرخة من راشيل وارتدت على الفراش تحاول أن تأخذ الزجاجاة من المرأة التي قاومت من أجل الاحتفاظ بها وشدت شعر راشيل ولكن راشيل استطاعت أن تنتزع منها الزجاجاة .

اندفع ستيفن للفراش وهو يصيح :

- هل أنا متيقظ أم حالم ؟ ماذا حدث يا راشيل ؟

- كل شيء ع ما يرام الآن . يبدو اني غفوت

للحظات .

رأى ستيفن وجه راشيل الشاحب وشعرها المنسحب ، ورأى آثار أظافر المرأة على خديها ، فعرف أنه كن متيقظا . صبت راشيل بعضا مما في الزجاجاة فوق قطعة قماش ومسحت بلطف رقبة المرأة وهي تقول:

- الساعة الآن الثالثة . أنا سعيدة أنني مكثت معكما . انها بخير الآن وقد أديت عملي وهي لن تحتاج لما بقي في هذه الزجاجاة .

١٠٥

وعندما استيقظ ستيفن وجد راشيل نائمة . وهناك فوق المنضدة كانت زجاجة السم . تحركت المرأة الملقاة على الفراش ، ثم جلست وأدارت عينيها في أرجاء الغرفة ، لم تتوقف عند راشيل النائمة فوق مقعدها ولكنها استقرت في النهاية فوق الركن المظلم القابع فيه ستيفن . كان ستيفن يعلم أن هاتين العينين الشرستين لا تنظران اليه ولكنها كانتا تبحثان عنه فهي تعرف أنه بالغرفة ! لم يكن في عينيه ما يتذكره ستيفن ، فالفتاة التي تزوجها ذات يوم لم يكن لها هذا الوجه المرعب . انها الآن تبدو وكأنها حيوان يرقد في الفراش .

لاحظت الزجاجاة الموجودة فوق المنضدة فمدت اليها يدا معروقة . لم يتحرك ستيفن من مكانه ، أخذت الزجاجاة وفتحتها بأسنانها - ستيفن لا يستطيع أن يتحرك أو يتكلم ، كان يتساءل . هل ما زال يحلم ؟ أم الآن؟ ما يحدث أمامه حقيقة ؟ وأخذ صوت ما في داخله يطبلع استيقظي يا راشيل !! استيقظي والا ماتت المرأة لاه .

١٠٤

ودهبت نحو المدفأة وألقت بسافى الزجاجة فوق
الرماد البارد ثم قالت :

- سأعود لبيتى الآن يا ستيفن .
فقال ستيفن :

- سوف آتى معك يا راشيل ، لا أحب أن أتركك
تذهبين وحدك .

- لا ، بل انتظر معها .. ساكون بخير .
- ألا تخشين من تركى وحدى معها ؟
- لا يا ستيفن .

- آه .. لقد حملتنى من جانب الشر الى جانب
الخير . اننى أود أن أصبح مثلك .. لقد أنقذتنى
يا راشيل ، عندما رأيت السم قلت فى نفسى : (ماذا
يمكننى أن أفعل لنفسى أو لها ؟) .

«ضمت راشيل يدها فوق فمه لتوقف هذه
الكلمات ، فأخذتها فى يديه وقال :

- لقد سهرت بجوار فراشها .. سوف تكونين

١٠٦

دائما بجانبها يا راشيل .. فى أفكارى .. ستكونين
دائما بجانبى أنا أيضا .

ثم خرج معها الى الشارع ، وقالت له فى صوت
متكسر :

- سعد مساؤك .

كانت الأمطار قد توقفت وكانت النجوم تلمع فى
السماء ، بينما قال ستيفن فى نفسه :
- ان راشيل هى نجمة حياتى المضيئة !

١٠٧

وأیضا صنع الزمان من هذا النسيج الجميل
« سيسى جوب » كائنا بديعا ورقيقا ، وان كان
- الزمان - لسوء الحظ لم يستطع أن يغير كثيرا فى
عقل سيسى .. وبالطبع خاب أمل السيد جراد جريند
لهذا ، وان كان حقيقة يحب سيسى لدرجة منعه من
أن يقضب منها لعدم قدرتها على استيعاب الحقائق .

أما السيد جراد جريند نفسه فقد أصبح عضوا
فى البرلمان عن مدينة كوكناون ، « عضو حقائق
الواقع » كما كان يحب أن يعتقد .

وفى يوم من الأيام قال لسيسى :

- ان المدرسة لا تساعدك كثيرا يا « جوب » ؛
وأرى أنه من الأفضل أن تتركها .

وأجابت الفتاة بقولها :

- أجل يا سيدى ، أخشى أن هذا صحيح .
- لقد تعلمت القليل من الحقائق والمعارف هناك .
- هذا صحيح يا سيدى ، ولكنى حاولت ..
حاولت بكل قوتى .

١٠٩

الفصل الثامن

ان الزمان نساج ماهر ، له أنوال أفضل من كل
أنوال مصنع « جوزيه باوندرباى » فى عامين - أو
أقل - نسج من « لويزا جرادجريند » امرأة بالغة ،
وجعل من « توماس الابن » موظفا فى بنك السيد
« باوندرباى » وأيضا جعل منه ضيفا دائما على بيت
السيد باوندرباى . ربما كانت حياة موظف البنك
ليست بالحياة السهلة .. ولكن على أى حال - بعيدا
عن البيت - كان توماس يجد الكثير من الوقت ليرفه
عن نفسه .

١٠٨

- أجل يا جوب لقد كنت أراقبك عن كتب ،
وأعرف أنك حاولت ، ولكن يبدو أنك بدأت متأخرة -
وتلك هي المشكلة .

فقالت « سيسى » ، بينما دموعها تنساب على خديها :

- أنا آسفة يا سيدى .

فقال « جراد جريند » :

- لا تبكى يا « جوب » .. لا تبكى ، فأنا لست
متضررا منك ، فأنت شابة رقيقة ومحبوبة وطيبة القلب
أيضا ، وهذا يكفى بالتأكيد .

فانعتت سيسى فى أدب جم وقالت :

- شكرا لك يا سيدى - شكرا جزيلا .

- لقد كنت نعم المعين لمسز جراد جريند ، وكنت
كذلك على ما أعتقد بالنسبة للآنسة لويزا وأملى هو أن
تكونى سعيدة معنا هنا .

- آه .. أجل .. بالتأكيد يا سيدى .

فى هذه اللحظة دخلت لويزا الى حجرة الدرس ،
فاتجه اليها أبوها وأخذ يدها فى يده وقال :

- يبدو أنى أصبحت أفتقدك يا عزيزتى .. لقد
أصبحت .. امرأة ناضجة ! أليس كذلك !

كانت اجابة لويزا الأولى هى نظرة فاحصة فى وجه
أبيها ، ثم نظرت الى أسفل وقالت :

- أجل يا أبى .

- يا عزيزتى ، ان لى معك حديثا جديا . فهلا
أتيت الى مكتبى غدا بعد الافطار .

- حاضر يا أبى .

- ان لدى مناقشة هامة هذا المساء .. لهذا ..
تصبحين على خير يا عزيزتى فستكونين نائمة حينما
أعود .

ثم طبع قبلة كبيرة على خدها .. فردت عليه
قائلة :

- مساء سعيد يا أبى .

انهما يتحدثان .. فى المصرف . ولماذا هما فى المصرف ؟
سوف أخبرك أيضا .. حتى لا تسمعهما مسز
« سبارسيت » !

واحتضن توم أخته وقربها اليه ثم قال لها فى
استعطاف :

- انك تحبيننى يا « لوى » أليس كذلك ؟

- بالطبع يا « توم » ولكن لماذا لا تأتى لترانى ؟

- انى أفكر فيك دائما يا « لوى » .. من الممكن
أن نكون معا دائما .. ربما . ستساعديننى كثيرا اذا
قررت أن توافقى أبى .. سوف أكون أسعد شباب
كوكناون حقا !

كانت لويزا تحديق فى نار المدفئة ولم يستطع
أخوها أن يستشف أى شىء من وجهها ، فاحتضنها بقوة
وطبع قبلة على خدها .. فقبلته بدورها ، ولكنها ظلت
تحلق فى النار .

فاستأنف توم حديثه قائلا :

- لقد جئت لأخبرك ، لكنى أعتقد أنك قد خمنت

بعد حوالى ساعة وصل « توم » الى « ستون
لودج » .. كان سعيدا أن وجد أخته وحدها فى حجرة
الدرس ، وقد بادوته **قائلة :**

- أوه .. « توم » .. لقد مضى وقت طويل منذ
أن كنت هنا آخر مرة .

- حسنا « لوى » .. ان عندي أشياء كثيرة تشغلنى
فى المساء ، وباوندرباى العجوز يفرقنى فى العمل
طوال النهار .. انه يصبح رجلا صعبا فى بعض
الأحيان .. عندها أجد لزاما على أن أذكره بك ! ..
خبرينى يا « لوى » هل تحدث اليك أبى فى شىء ؟ ..
الليلة أمس ؟

- لا يا توم ، ولكنه كان يود .. وسيحدثنى غدا
صباحا .

- آه ! هذا هو اذن .. هل تعلمين أين هو
الليلة ؟

- لا ..

- سوف أخبرك . انه مع السيد باوندرباى

الأمر بالفعل .. أنا مضطر لأن أتركك الآن يا « لوو »
فعندى حفلة الليلة .. مع بعض موظفى المصرف ..
أنت لن تنسى حبك لى .. اليس كذلك .. ؟

— لا يا « توم » .. لن أنسى .

— أنت فتاة رائعة ! الى اللقاء يا « لوو » .

— مساء سعيد يا « توم » .

وأخذت لويزا تتابع أخاها وهو يسرع مبتعدا .

أضأت نيران مصانع كوكتاون سماء الليل بضوء
أحمر ، حاولت لويزا أن تجد شيئا — أولا — فى نار
المدفئة والآن تبحث فى السماء الحمراء . لقد جعل
منها الزمان — النساج — امرأة ناضجة فى ما ترى ماذا
ينسج لها المستقبل ؟

جاءتها الاجابة بعد الافطار فى الصباح التالى

قال لها أبوها :

— عزيزتى لويزا .. أنا مهزور جدا بك وفخور
أيضا بالنتائج التى حققتها فى تعليمك ، لقد خدمتك
الحقائق جيدا ! فانا لم أسمح مطلقا للخيالات الغبية

١١٤

أن تحل فى هذا البيت .. ان التصورات التافهة لم
تسلب حياتك ميزاتها المعتدل لهذا السبب أنا أعلم
أنك ستوافقينى الآن ..

وانتظر جراد جريند برهة .. عليها تقول شيئا
ولكن لويزا ظلت صامته .. فاستأنف كلامه :

.. عزيزتى .. ان سيدا مهذبا قد سألنى اذا
كان فى امكانه أن يقترب بك ..

وانتظر جراد جريند ثانية ، لكنها لم تنفوه بكلمة
فاندعش كثيرا حتى انه **مر مرورا قال :**

— اذا كان يمكن أن يقترب بك !

فقالت :

— لقد سمعت يا أبى .. انى مصغية .

— حسنا يا عزيزتى ، اليس عندك ما تقولين ؟

— لا .. حتى الآن يا أبى . من فضلك أخبرنى

بكل شيء أولا .

لم يبد على السيد جراد جريند الارتياح ، فالتقط
مسطرة من مكتبه وأخذ يتأملها ثم **قال :**

١١٥

— بل من الصعب أن تقول ماذا يعنى (الحب)
يا ابنتى ؟ فأنت والسيد باوندرباى تهتمان بالحقائق
لا بعالم الأوهام .. إن الشباب الأحق قد يتحدث عن
الحب ، لكنى لا أستطيع أن أربط بين هذه الكلمة وبين
عرض السيد باوندرباى للزواج منك .

— اذن ماذا يجب أن أستعمل بدلا من كلمة الحب

يا أبى ؟

— الحقائق يا عزيزتى .. استعمل كلمة الحقائق ،
أنك فى العشرين من عمرك ، والسيد باوندرباى ربما
كان فى الخمسين . الفرق فى السن بينكما ليس مهما
فأنكما متكاثران فى الوضع الاجتماعى وفى الثروة ، وفى
معظم الزيجات يكون الرجل أكبر كثيرا من المرأة ..
هذا الوضع صحيح فى إنجلترا وفى الهند وفى الصين
وفى كل مكان .

ظلت لويزا على هدوئها التام **وقالت :**

— أبى هل تعتقد أن هذه الحقائق يمكنها أن تحل

محل الحب ؟

١١٧

— نعم .. بالطبع .. ها هى الحقائق كلها يا ابنتى ،
ان السيد باوندرباى يقول : انه كان يلاحظك — وأنت
تكبرين — بسرور بالغ .. كان دائما يتمنى أن يتقدم
لخطبتك يوما وهو يعتقد أن هذا اليوم قد جاء . وهو
يتمنى أن تقبله . هذه هى الرسالة التى أحملها
إليك .

خيم الصمت على الغرفة للحظات ثم **قالت لويزا :**

— أبى هل تعتقد أنى أحب السيد باوندرباى ؟

فشمع السيد باوندرباى بعدم ارتياح وقلق ..
ثم قال :

— طفلى .. اننى حقيقة لا أعلم !

— أبى هل تريد منى أن أحب السيد باوندرباى ؟

— لا يا حبيبتى أنا لا أريد هذا بالتحديد ..

— وهل يريد منى السيد باوندرباى أن أحبه ؟

— للحق يا ابنتى .. انه من الصعب الاجابة على
سؤالك هذا .

— هل من الصعب الاجابة بنعم أو لا يا أبى .

١١٦

- بالتأكيد يا عزيزتي ! السيد بارندرباي طلب
يدك للزواج . هذه حقيقة ، والحقيقة الهامة الأخرى
هى . . هل تقبلينه أم لا ؟ . . انه شئ فى غاية
البساطة .

فقالت لويزا ببطة :

- هل أقبله ؟

كانت لويزا ترتعش . . تمنى أن تلقى بنفسها
بين ذراعى أبيها وتخبره بمكنون قلبها ، لكن توماس
جرادجريند لم يلاحظ شيئا فقد كان هناك جدار عال
بين عقله وبين المشاعر العادية . ومرت اللحظة كما مرت
غيرها من اللحظات وفاتت الفرصة .

ظلت لويزا صامتة لفترة طويلة حتى سألها

أبوها :

- فيم تفكرين يا عزيزتي ؟

فاجبت :

- ان الحياة قصيرة جدا يا أبى .

١١٨

- حسنا . . الناس يعيشون الآن أطول بكثير مما
كانوا يعيشون منذ خمسين عاما .

- انى أتحدث عن حياتى أنا يا أبى .

- دون شك . . سوف تعيشين طويلا مثل معظم

الناس .

- انى أريد أن أفعل شيئا طيبا فى حياتى . .

لكن . . ربما هذا لا يهم فالسيد باوندرباي يريد أن

يتزوجنى . . وأنا لا أحبه ، فإذا كان يفهم ذلك . .

فسأقبله ، يجب أن يأخذنى كما أنا . . أخبره بهذا

يا أبى أرجوك . . بالضبط كما قلته .

- سوف أخبره . . ومن الواجب أن يقال كلامك

كما قلته بالضبط . هل لديك أى فكرة لتحديد موعد

الزواج ؟

- لا يا أبى . لا يهم .

نظر إليها أبوها بحدة ثم قال :

- لويزا . . ربما كان يجب أن أسألك سؤالا

آخر . . هل طلب أى سيد مهذب آخر منك الزواج ؟

١١٩

فصاحت فى دهشة :

- أبى ! من تراه يسألنى ؟ وإى انسان قابلت ؟
وآين كنت حين قابلتنى ؟ وإية تجارب تلك التى مر بها
قلبى ؟

- كان من واجبى أن أسأل يا لويزا .

- أنا لا أعرف أى شئ عن آمال المرأة ورغباتها
ولا . . عن الحب .

- هذا صحيح يا عزيزتى ، أنا سعيد لسماع
هذا .

- الأطفال يتمنون أن يصبحوا أمهات وآباء ولكنى
لم أفعل . لقد دربتنى جيدا يا أبى بحيث لم أملك
أبدا قلب طفلة .

- بالتأكيد يا عزيزتى ! ان تربيتك تبعث على
السعادة واليوم أحصل على المكافأة ، فالسيد باوندرباي
رجل عظيم . والآن . . دعينا نخبر والدتك .

بالطبع ، كان السيد جرادجريند يأمل أن تكون
لويزا سعيدة . كانت سيسى جالسة بجوار فراش

١٢٠

السيدة المريضة . . حين سمعت الخبر . . نظسرت
بحزن الى لويزا . كان هناك حب عظيم يطل من عيني
سيسى ولكن . . كان هناك أيضا شك كبير وكثير من
الشفقة . لويزا أحست بهذا ومنذ تلك اللحظة تغيرت
مشاعرها تجاه سيسى فأصبحت صامتة وباردة ، ولم
تعد منذ هذه اللحظة صديقة سيسى . . انها حتى لم
تعد تتحدث اليها .

١٢١

الفصل التاسع

كان السيد « باوندرباى » يخشى - الى حد ما - أن يعجز مسز « سبارسيت » بأمر زواجه . كان يتساءل فى نفسه « ماذا يا ترى سيكون رد فعلها » ربما تترك المنزل فى الحال أو .. ربما لن تتحرك بصفة واحدة من مكانها ، ربما - كما كان يعتقد - تحطم قلبها أو .. ربما حطمت أثاث البيت .

أخيرا قرر أن يفاتحها فى هذا الأمر فقال لها :

« مسز « سبارسيت » .. سيدتى ، انك سيدة عظيمة .. كريمة المحند ، كما أنك سيدة حكيمة أيضا .

١٢٢

- يسعدنى كثيرا أن يكون هذا هو رأيك يا سيدى .

- الآن .. سيدتى ، سوف أخبرك بشئ قد يدهشك ، فانا أزمع الزواج من ابنة توم جراد جريند .

- حقا يا سيدى ؟! حسنا .. أتمنى لك السعادة يا سيد باوندرباى .. آه .. أجل أتمنى هذا بالفعل . أتمنى من كل قلبى يا سيدى أن تحيا فى سعادة دائمة . كانت تتكلم بكبرياء شامخة وأيضا .. بأسف شديد ! فأجابها « باوندرباى » بأدب جم :

- أشكرك .. مدام ، أنا أيضا أتمنى هذا ، ربما كنت لا تودين البقاء هنا بعد زواجى ، ولكننا بالطبع نرحب بك معنا ..

فهزت السيدة رأسها فى كبرياء وقالت :

- لا يا سيدى .. ليس فى امكانى البقاء ..

فقال « باوندرباى » بسرعة :

- اذن .. هناك شقة كبيرة فوق المصرف - مدام

١٢٣

ثم أضافت :

- ان الأنسة جراد جريند ستكون ما تتمنى و .. تستهوى يا سيدى .

فقال « باوندرباى » بصيقل :

- أجل .. أجل .. أجل .. أمل هذا .

بعد هذا الحديث ، أصبحت مسز « سبارسيت » أكثر عطفًا وأكثر أدبا مع السيد « باوندرباى » .. انه فى طريقه الى أن يتزوج الزوجة التى يريدوها .. ويستحقها ، لكن نظرة الأسف لم تفارق وجه مسز « سبارسيت » ، هذه النظرة كانت تثير الحمرة والعرق البارد فى وجه السيد « باوندرباى » .

حدد موعد الزفاف وأصبح السيد « باوندرباى » يذهب الى (ستون لودج) كل مساء محملا باللهايا الثمينة .. الفساتين والأحذية المصنوعة خصيصا للويزا . وافق السيد باوندرباى والسيد جراد جريند على الدوطة (المهر) .. كان كل ما يتعلق بالزواج عبارة عن اتفاقات رجال أعمال و .. حقائق . الناس العاديون

١٢٥

- واذا قبلت العيش هناك فأعتقد أنك ستضيفين حيثية المكان للعمل وسأدفع لك نفس راتبك الآن و ..

فجابت مسز « سبارسيت » قائله :

- أجل .. أجل ، لا حاجة بنا لمناقشة التفاصيل ، ان فكرة الشقة والسكن فوق المصرف تبدو جيدة ، اذا كان مركزى سيظل محفوظا كما هو الآن .

- أوه بالتأكيد يا سيدتى .. فما كان يمكننى أن أقترح أى شئ أقل على سيدة نبيلة لها مثل أصلك الرفيع .. بالطبع أنا رجل من الشارع ، ولكنك أنت تعودت على الرفاهية !

- أجل ، يا سيدى انك بالغ العطف .

- ان الحجرات فوق المصرف مريحة جدا ، ويمكنك أن تستخدمى امرأة لتنظيف المكان ، وفى المساء هناك رجل لحراسة المكاتب ، وبالتالي سيقوم بحراستك وخدمتك أيضا .

- لا تضيف شيئا يا سيد باوندرباى ، فانا أقبل عرضك شاكرة ..

١٢٤

يقولون - أحيانا - أن ساعات الحب تمر بسرعة شديدة أو ٠٠ أحيانا ببطء شديد ، ولكن ٠٠ في « ستون لودج » اليوم أربع وعشرون ساعة تماما ، واساعة ستون دقيقة بالضبط .

أخيرا ، جاء اليوم العظيم ، « جوزية باوندرباي » أغنى أغنياء كوكتاون تزوج « لويزا » ابنة « توماس جراد جريند » عضو البارلمان . وتم الزواج في أكبر كنيسة بكوكتاون . وبعد المراسم والمطقوس تناول الضيوف طعام الافطار في « ستون لودج » وبعد الافطار ألقى السيد « باوندرباي » كلمة قال فيها :

« سيداتي وسادتي ، انا «جوزية باوندرباي» من (كوكتاون) ، وانه ليشرفني ويشرف زوجتي أن نرحب بكم هنا . أنتم جميعا تعرفونني ، تعرفون أنني بدأت حياتي في الشوارع وعلى هذا فلا تتوقعوا خطابا بليغا . صديقي ووالد زوجتي « توم جراد جريند » عضو في البارلمان وهو الرجل الذي يمكنه أن يلقي عليكم خطابا بليغا .

١٢٦

فوضعت ذراعيها حوله ولكنها لم تستطع الكلام . فقال هو :

- ان باوندرباي العجوز قد استعد ٠٠ يجب أن تذهبي الآن ٠٠ الى اللقاء سوف أكون في انتظارك حين عودتك ٠٠ أوه لوو ٠٠ انني أسعد شباب كوكتاون بالقطع ، أليست الحياة رائعة !

١٢٨

اني أشعر بالفخر اليوم ٠٠ فطفل الشوارع القذر تزوج ابنة « جراد جريند » ! لقد رأيت السيدة في نموها وأعتقد أنها تستحق أن تكون زوجتي ، وفي نفس الوقت فأنتم توافقون على أنني أستحقها أيضا .

شكرا سيداتي وسادتي لكل امنياتكم الطيبة لنا . يمكنني أن أرى العديد من الضيوف غير المتزوجين حول هذه المائدة ، وها هي امنياتي لهم ٠٠ أتمنى لكل رجل أن يجد زوجة مثالي زوجتي ٠٠ وأتمنى لكل امرأة أن تجد زوجا مثلي ! » ٠٠

وبعد ساعة ، أصبح السيد والسيدة «باوندرباي» على استعداد للرحيل لقضاء شهر العسل ٠٠ سوف يسافرون الى فرنسا ، فالسيد باوندرباي كان ينوي دائما أن يزور مصانع النسيج في ليون . ولهذا ٠٠ سوف يذهبان الى ليون لقضاء شهر العسل !

وفي طريقها قابلت « لويزا » أخاها على درجات السلم ، فهمس لها قائلا :

- أنت أحسن أخت في العالم ٠٠

١٢٧

الفصل العاشر

كان يوما قافلا في كوكتاون ، الكل يعرف أنه الصيف ، طبعاً ليس لسطوع الشمس أو للظلال التي تلقيها على الشوارع ، فالتاس في كوكتاون لا يرون الشمس كثيراً ، لأنها دائماً تختفي خلف سحب الدخان المنبعثة من مصانع المدينة ولكن الكل يعرف أنه الصيف لأنه شهر يوليو ولأن المصانع أصبحت شديدة الحرارة .

مر عام منذ زواج باوندرباي بلويزا . وطوال هذا الوقت لم تحرر مسز سبارسيت باوندرباي من نظرات الشفقة التي كانت تلاحقه بها ، وفي هذا المساء كانت

اوقات عصيبة ١٢٩



منظر في الشارع

١٣١

نجلس في النافذة المفضلة عندها - فلشقتها نافذتان
نظان على الشارع الذي يقع فيه المصرف - ولهذا
تستطيع أن تشاهد ما يحدث في المدينة . وفي كل
صباح تراقب السيد باوندرباى وهو يعبر الشارع الى
مكتبه ، وفي كل مساء تراه حينما يعود الى بيته .
كانت ترى اشياء كثيرة أخرى .

في المساء حين يخيم الليل تصبح السيدة
سبارسيت ملكة المصرف ، كانت تعتقد أنها هناك لتحرس
المكاتب وخزانة المصرف . معظم أموال كوكتاون كانت
في هذه الخزانة بجدرانها الحديدية وأقفالها الثلاثة ،
كما كانت مسز سبارسيت رئيسة للسيدة العجوز التي
تطبخ وتنظف بالإضافة الى أنها ترأس الحارس
الشباب الذي يرقد كل ليلة على فراشه الموضوع أمام
باب الخزانة .

في هذا المساء شاهدت السيد باوندرباى وهو
يذهب ، وبعد عشر دقائق انصرف موظفو المصرف ثم
أحضر الحارس اناء الشاي للملكة . .

١٣٠

- حسنا سيدتى ، لقد تحدثوا وتجادلوا بالطبع .
انهم يحاولون انشاء نقابة لعمال النسيج .

- ان هذا سيء ، يجب على السيد باوندرباى
وأصدقائه ان يمنعوا هذه السخافات فى الحال . هذه
« الأيدي » يجب اخضاعها ، لن تكون هناك نقابات
عمال فى كوكتاون !

- أنت على حق تماما . . سيدتى !
- أمل أن يكون سلوك موظفى المصرف جيدا وأنهم
يعملون بجد . . هل يفعلون هذا يا بيتزر ؟

كان بيتزر يعمل أيضا فى المصرف أثناء النهار ،
وكان واجبه هو أن يحمل الأخبار للسيد باوندرباى
فهو يتسمع لحديث عملاء المصرف كما يتسمع لأحاديث
الموظفين . . فيعرف الكثير من الأسرار التى يحملها
أولا بأول الى باوندرباى . وعلى عكس سيسى جوب فان
بيتزر قد تعلم حقائق المعرفة التى درسها فى المدرسة
جيدا . ولم تكن هناك أية مشاعر انسانية تعتمل فى
نفسه أو خيالات وهمية تسكن عقله . كان شابا يفخر

١٣٣

- شكرا يا بيتزر !

- الشكر لك . . سيدتى .

هكذا أجاب الحارس على مسز سبارسيت ، كان
شابا ذا شعر فاتح اللون ووجه شاحب لم يتغير كثيرا
فى الخمس سنوات الماضية ، مازال يملك ذاكرة عظيمة
فى حفظ الحقائق والمعلومات ، ولم ينس مطلقا البنات
رقم (٢٠) ، سألته مسز سبارسيت :

- هل أغلقت كل الأبواب والنوافذ يا بيتزر ؟
- أجل . . سيدتى !

لم يكن لدى مسز سبارسيت الكثير من الزوار
لهذا كانت تستمتع بالحديث مع الحارس كل أمسية ،
وبينما هي تصب الشاي سألتها قائلة :

- ماذا عندك من الأخبار اليوم ؟

- لا شيء يا سيدتى غير أن العمال سببوا المتاعب
ثانية ، ولكن هذا ليس جديدا أليس كذلك ؟

- وماذا فعلوا اليوم يا بيتزر ؟

١٣٢

السيد باوندرباى والسيد جرادجريند بحسن تربيته وتعليمه .

اسماء تكون - للأسف - مرتبطة به . لهذا أرجوكم يا بيتزر . . . استعمال كلمة (الشخص) . . . !

توجه بيتزر الى النافذة ووقف أمامها وأخذ في الحديث :

- أجل يا سيدتى ، حسنا ، اذن الشخص الشاب يسلك سلوكا غير طيب ، وهو أيضا لا يعمل بجد . . . انه لا يعمل بجد اطلاقا منذ مجيئه الى المصرف ، فهو كسلان جدا ، كما أنه ينفق الكثير ويتعاطى الخمر بشراهة ولولا أن له صلة قرابة فى المصرف لما كان قد عين فيه أبدا .

- آه . . . مهمم

- كل ما أتمناه يا سيدى ، هو ألا ينفق هذا الشخص أموال قريبه ، اننا يجب أن نشعر بالشفقة على السيد المذهب . . . السيد المذهب الذى عين هذا الشخص . . . يا سيدتى .

- أجل يا بيتزر ، لقد كنت أشفق عليه دائما ، وسأشفق عليه أبدا .

١٣٥

وقبل أن يجيب على سؤال مسز سبارسيت الأخير، صمت برهة ثم قال :

- أجل ، يا سيدتى . سلوكهم جيد جدا ، فيما عدا . . . السيد المذهب يا سيدتى .
- آه . . . تقصد .

- السيد جراد جريند الابن يا سيدتى . فان بعض الشكوك تساورنى نحوه يا سيدتى .

- أوه بيتزر . أنا لا أحب أن أسمع أسماء ، لقد نبهت عليك من قبل ، اليس كذلك ؟

- حاضر سيدتى ، انى آسف !

- تذكر أرجوكم . اننى مسئولة عن المصرف فى الليل . ان السيد باوندرباى قد عرف لى ولعائلتى - مشكورا - قدرنا الاجتماعى . لهذا يجب أن أكون أمينة معه ، ولا يمكننى أن أكون كذلك اذا استمعت الى

١٣٤

ودخل خلف بيتزر شاب أنيق جدا يسير بلا مبالاة ويتصرف بلا مبالاة ، وقد قررت مسز سبارسيت حال أن رآته أنه . . . (جنتلمان) .

ثم تكلم الرجل :

- سيدتى . . . اسمحى لى من فضلك .

قال الرجل هذا بينما كانت مسز سبارسيت تكون عنه صورة فى عقلها . . . « رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، له وجه مشرق وقسمات مليحة . . . أسنان قوية . . . صوت جميل وعينان جسورتان ، ثم قالت :

- تفضل بالجلوس يا سيدى .

فقال الضيف :

- شكرا . . .

ولكنه لم يجلس بل وقف بالقرب من المنضدة

وقال :

- لقد تركت خادمى فى محطة القطار مع أمتعتى . ان هذه المدينة غريبة حقا . هل تمانعين فى الإجابة على سؤال يا سيدتى ، هل هى مظلمة هكذا دائما ؟

- ان الشخص الشاب تعود أن يبعثر امواله . . . يا سيدتى !

- كان يجب عليه أن يحذو حذوك يا بيتزر .

- أشكرك يا سيدتى . اننى أذكر جزءا كبيرا من راتبى . . . ولكنه لا يدخر شيئا .

وفجأة استدار بيتزر من امام النافذة وتوجه بالكلام لمسز سبارسيت :

- هناك سيد مذهب يقف فى الشارع ، كان ينظر الى أعلى لدقيقة أو دقيقتين ، وهو الآن جاء الى الباب .

وفى اللحظة التالية سمعوا طرقا على الباب . فتساءلت مسز سبارسيت قائلة .

- من عساه يكون ؟ لقد تأخر كثيرا عن موعد المصرف ، ولكنى المسئولة الآن ، ولهذا . . . ربما كان يجب على أن أقابله . افتح له من فضلك يا بيتزر .

وبعد دقيقة دخل بيتزر ومعه الزائر وقال :

- هذا السيد يود مقابلتك يا سيدتى .

١٣٦

١٣٧

- انها عادة ما تكون أكثر اظلاما ..

- لا يمكن !! عفوا .. اسمحي لي .. هل كنت تعيشين هنا باستمرار ؟

- لا يا سيدى ، فقط منذ وفاة زوجى . قبل هذا ، كنا نعيش فى ظروف مختلفة تماما .

- ألم تمل العيش فى هذا المكان ؟

- اننى رهينة لواقع مؤسف يا سيدى ، ولكننى تعودت عليه .

- ربما كان هذا من الحكمة ..

- هل لى فى سؤال يا سيدى ؟ .. لماذا أردت رؤيتى ؟

- بالطبع ، أشكرك لتذكيرى ، اننى أحمل رسالة للسيد باوندرباى .. تقدمنى له . لقد سألت رجلا عن البيت الذى يعيش فيه السيد باوندرباى فأحضرنى الى هنا ، ربما كان يظن أن المصرف ما زال مفتوحا ، ان السيد باوندرباى لا يعيش هنا .. أم تراه يسكن هنا ؟
- لا يا سيدى ، انه لا يسكن هنا .

١٣٨

- شكرا لك .

وأراح السيد احدى رجله على زاوية المنضدة ،
وقال ببطء :

- لن أسلم له الرسالة هذا المساء ، ولكن على الأقل كان يجب أن أعرف مكان المصرف بالتأكيد أعتقد أنك تعرفين أين يعيش السيد باوندرباى ، ساكون سعيدا لو أخبرتنى .

لم تجب مسز سبارسيت وسكتت لبرهة ، فرفع السيد المهذب رجله من على زاوية المنضدة
وانحنى عليها وقال :

- لا بد أنك تتساءلين عنى أكون

ثم أخرج رسالة من جيبه قائلا :

- هذه الرسالة معنونة للسيد باوندرباى ، انها من جراد جريند عضو البرلمان ، لقد تعرفت عليه فى لندن .

فتحركت مسز سبارسيت نحو النافذة وأشارت

١٣٩

بيدها نبين للزائر مكان بيت السيد باوندرباى . فقال
لها السيد المهذب :

- شكرا يا سيدتى .. أعتقد أنك تعرفين السيد باوندرباى جيدا .

- أجل يا سيدى .. لقد عرفته لعشرة أعوام .

- وقت طويل ! لقد تزوج ابنة جراد جريند ..
أليس كذلك ؟

- بل .. لقد حصل على هذا الشرف يا سيدى .

- حكى لى جراد جريند عنها ، انها امرأة ذات عقل مدبش ، ذكية جدا وصعبة المراس .. آه ! انك تبتسمين يا سيدتى ! ألا توافقين على هذا الكلام ؟ كم عمر السيدة ؟ خمسة وثلاثون أو .. أربعون عاما ؟

فضحكت مسز سبارسيت وقالت :

- انها لا تزال طفلة ، لم تكن قد بلغت العشرين حين تزوجت .

- حسنا ! ان هذا يدهشنى ! لقد جهزت نفسى لمقابلة امرأة كبيرة حكيمة فى بيت السيد باوندرباى .

١٤٠

أشكر لك تصحيح فكوتى ، وأشكرك أيضا على معونتك . والآن يجب أن أرحل .. سعد مساؤك .

وهكذا رحل السيد المهذب ووقفت مسز سبارسيت تراقبه وهو يتهادى فى الطريق . وبعد دقيقة جاء بيتزر لياخذ أدوات الشاى **وقال :**

- هذا السيد ينفق الكثير من المال على هندامه .

- حقا .. كانت ملابسه جميلة جدا .

- ولكنها لا تستحق المال يا سيدتى .. ربما

هذا السيد لا يشقى كثيرا فى سبيل الحصول على المال .

جلست مسز سبارسيت أمام النافذة لساعتين أو ربما ثلاث ساعات ، لم تشعل المصباح حتى حين أصبحت الغرفة مظلمة .

كانت نيران مصانع كوكتاون تضىء السماء بضوء أحمر . أخيرا وقفت وتوجهت الى فراشها **وصوت من داخلها يقول :**

- أوه .. انك أحمق !!

من هو هذا الأحمق .. لم تجربنا مسز

سبارسيت !

١٤١

الشرق لكن الطقس ، كان حارا جدا بالنسبة له فعاد الى الوطن ثانية .. لقد اشتغل بالكثير من الأعمال لكن أيا منها لم يعجبه . وفى يوم من الأيام قال له أخوه عضو البرلمان :

- جيم ان رجال الواقع الصعب يبحثون عن رجال أكفاء ، لماذا لا تهتم بدراسة هذا الموضوع ؟

فاجاب جيم :

- هذه فكرة طيبة على الأقل .. ليس عندى خير منها فى الوقت الحالى .

وعلى هذا أعطى الأخ الأكبر جيم كتابا أو كتابين . واستغرق جيم فى دراسة الحقائق ، وفى نهاية الأسبوع شعر أنه أصبح ماهرا جدا .

بعد هذا قابل أخوه السيد « جراد جريند » فى البرلمان وقال له :

- توم .. اذا كنت تريد رجل حقائق فقابل أخى ، انه يستطيع أن يديج خطبا رائعة وله طريقة ذكية .

١٤٣

على الإطلاق . واستأنف السيد باوندرباى حديثه قائلا :

- حسنا يا سيدى . ان كوكتاون ستكون بالتأكيد مكانا غريبا بالنسبة لك ، لهذا .. اذا أصغيت الى .. أو حتى اذا لم تصغ فسأحكى لك شيئا عنها .
- أوه .. أرجوك ..

- ان سكان لندن لا يحبون مدينتنا عادة لأنها مظلمة ومملوءة بالدخان ولكن .. الدخان هو طعامنا وشرابنا يا سيد هارتهاموس وهو غير ضار على الإطلاق بل على العكس ! انه مفيد - فى الواقع - لأجسامنا .. لهذا تجدنا لا نريد أن نخلص من دخان مدينتنا . بل نريد أن نحفظ به .

قرر هارتهاموس أن يمضى فى هذه التجربة لهذا قال :

- أجل ، بالطبع يا سيد باوندرباى . أنا أوافقك تماما .

- أنا سعيد بهذا ، حسنا والآن اليك بعض الحقائق .. ان مجال عملنا هو صنع الملابس والنسيج .

١٤٥

الفصل الحادى عشر

« جيمس هارتهاموس » .. هذا هو اسم زائر مسز سبارسيت .. أصدقاؤه يدعونه « جيم » . وجيم هو الأخ الأصغر لأحد أعضاء البرلمان الذى كان صديقا حميما لمستر جراد جريند .

عمل « جيم هارتهاموس » لفترة كضابط فى الجيش ، ولكن كثرة الواجبات والالتزامات العسكرية أتعبته ولهذا ترك الجيش ، ثم خدم الحكومة البريطانية كموظف يتبعها فى بعض البلاد الأجنبية ولكن العمل كان شاقا فعاد جيم الى إنجلترا ، ثم سافر بعد هذا الى

١٤٢

بعد هذا بقليل وصل السيد « جيمس هارتهاموس » الى كوكتاون .. قابل مسز « سبارسيت » وأخذ غرفة فى الفندق ، وفى الصباح التالى أرسل خادمه الى منزل السيد باوندرباى حيث سلم الخادم رسالة السيد « جراد جريند » الى :

(السيد « جوزيه باوندرباى » - كوكتاون)
بخصوص تقديم السيد « جيمس هارتهاموس » .
من « توماس جراد جريند »)

وبعد ساعة وصل السيد باوندرباى للفندق وكان جيم ينظر حزينا من نافذة غرفة الطعام يحدث نفسه قائلا : « الحقائق ليست شيئا مثيرا ، خصوصا فى كوكتاون فقرر أن يستغرق فى شئ آخر ، عندما دخل الخادم محضرا السيد باوندرباى الذى قال لجيم :

- اسى يا سيدى .. هو جوزيه باوندرباى من كوكتاون ..

- آه .. هذا شئ يدعو للسرور .
- هكذا رد هارتهاموس وان كان لا يبدو مسرورا

١٤٤

انه أفضل وأسهل عمل في العالم و (الأيدى) عندنا تحصل على أجور أعلى من أى عمال آخرين وليس بإمكاننا أن نجعل مصانع نسيجنا أفضل من الآن .. الا اذا فرشنا أرضياتها بالسجاجيد الهندية .. ونحن لن نفعل هذا !

— معك الحق تماما يا سيد باوندرباى .

— الناس هنا لا يرضون أبدا .. انهم يريدون أفضل قطع اللحم الأحمر كل يوم ، ويريدون أن يأكلوه بشوكة من ذهب ! والآن هم يتحدثون عن نقابة عمال لهم ! هل سمعت مثل هذا الهراء من قبل ؟ حسنا ، ان عمالنا لن يحصلوا على مثل هذه الأشياء . يا سيد هارتهوس .

— أعتقد أنك على حق تماما يا سيد باوندرباى !

— أنا أحب أن أفهم الرجل ، كما أن الرجل يجب أن يفهمنى ، لقد أخبرتك بالحقائق ، ولسوف .. أساعدك هنا على قدر استطاعتي . بقى عندي شيء واحد أحب أن أخبرك به يا سيد هارتهوس انك تنتمى

لعائلة مهمة أما أنا فلا يا سيدى . اننى لست الا قطعة قذرة من الشارع حيث ولدت .

— هذا يجعل كل شيء أفضل يا سيد باوندرباى !

— وأنا أعرف قذرة الشارع جيدا ، ولكنى نأيت بنفسى وارتفعت عنها يا سيدى ، بمجهودى الخاص وأنا فخور بنفسى .. مثلك تماما . ربما كنت على علم بأننى تزوجت ابنة توم جراد جريند ، فاذا لم تكن مشغولا هذا الصباح ، فهل تتفضل باصطحابى الى بيتى ؟ فانه سيكون من دواعى سعادتي أن أقدمك لابنة توم جراد جريند .

— يا سيد باوندرباى .. لقد لمست أعز أمنياتى .

وعندما قابل جيمس هارتهوس السيدة باوندرباى .. أحس بالنشوة ، كانت صامته وفى غاية الهدوء ، تبدو غير مبالية ولكنها كانت تتأمل الزائر عن كثب . ويقدّر ما كانت مغرورة وباردة .. كانت أيضا تشعر بالحجل لسلوك زوجها وأسلوبه الفظ . ان جيم لم ير فتاة مثلها من قبل ، كانت جميلة .

لديها أسبابها . انها تعرف كل الحقائق والمعارف التى فى العالم أجمع ، يا سيد هارتهوس ، اذا كنت تريد أن تتعلم بسرعة فليس فى استطاعتي أن أقترح عليك معلما أفضل من لوى باوندرباى ..

فقال هارتهوس :

— كلى ثقة أنه لن يكون هناك من هو أفضل .

— اننى غالبا لا أحسن اطراء الناس ، لم أتعلم هذه العادة . فانا لا أعد من النبلاء . سيد هارتهوس ، أنا جوزيه باوندرباى من كوكتاون وحسب ، وهذا يكفينى . اننى لا ألقى بالا لطريقة الشخص أو مكانته .. آخرون غيرى يفعلون ، أعرف هذا ، أما أنا فلا ..

فابتسم جيم للويزا وقال :

— ان السيد باوندرباى مخلوق نبيل يحيا حياة برية منطلقة ! أما أنا .. فلست الا شيئا مسكينا تم ترويضه !

بالرغم أنها كانت تحاول السيطرة على نظراتنا . وقد خمن جيم أنها من النوع الذى لا يعتمد على أحد الا على نفسه . كان يعتقد أنها لم تعان الحيرة مطلقا اللهم الا اذا كان كل شيء يدعو للشك . كانت تقف هناك .. أمامه .. ولكن عقلها كان يبدو شاردا وحيدا . لم يستطع جيم أن يفهمها .. على الأقل حتى الآن ..

أجال جيم بصره فى الغرفة . لم يكن بها ما ينم عن لمسات المرأة وروحها . لا بهجة .. ولا رفاهية .. لا شيء يدل على ذكريات سعيدة . كانت الغرفة فقط ثقيلة وفاخرة الرياش و .. قبيحة

وبعد تقديم السيد هارتهوس قال باوندرباى :

— كوو .. ربما أصبح لكوكتاون — عن قريب — عضوان فى البرلمان .. أبوك والسيد هارتهوس . ان السيد هارتهوس قد جاء ليتعرف على المكان ..

ثم توجه بالحديث لجيم قائلا :

— كما ترى يا سيدى ، فان زوجتى تصغرني فى العمر . أنا لا أعرف لماذا تزوجتنى ولكن .. لا بد أن

فقلت لويزا بهدوء :

- انك تبجل السيد باوندرباى كثيرا ، وأنا غير مندهشة لهذا .

فى الواقع ان الذى اندهش هو جيم . لأنه لم يفهمها .

ثم قالت لويزا :

- انك تنوى خدمة بلدك . وتأمل فى أن تجد حلولا لكل مشاكلها .

فضحك جيم وقال :

- لا ، يا مسز باوندرباى ، لست أسعى لايجاد أية حلول . لقد رأيت الكثير ، هنا وهناك ، لأنى سافرت بعيدا . ولكن كل ما رأيته كان عديم الأهمية . كل ما زأينته بدا لى عديم الأهمية ، انسى أسلك هذا الطريق بناء على آراء والدك لأنها آراء طيبة ، مثلها مثل آراء أخرى .

١٥٠

فسأته لويزا :

- أو ليست لديك أراؤك الخاصة يا سيد هارتهوس ؟

- لا . على الاطلاق . وليس مهما أن تكون لى آرائى ، ان أى مجموعة آراء ستكون على قدر مماثل من الجودة مثل غيرها ! . أو على قدر مماثل من الضرر مثل غيرها ! يا مسز باوندرباى ان المثل الايطالى يقول « ان ما قدر له أن يكون ، حتما سيكون » وهذه هى الحقيقة الوحيدة . ألا توافقين ؟

هذا النوع الخطر الذى يفتعل الاخلاص بدا وكأنه أعجب السيدة . ولهذا استنرد جيم بسرعة :

- ان الحقائق والأرقام يمكنها أن تكون مملوءة بالمتعة . انها تعطى أحسن الفرص للانسان . اننى استمتع بها جدا ، ولكنى لا أصدقها . ولهذا فأنا سأعمل من أجل الحقائق والواقع ! ولم يكن باستطاعتى ان أفعل أكثر اذا كنت أصدقها .

١٥١

فقلت لويزا :

- انك ستصبح عضوا غير عادى فى البرلمان .
- ليس صحيحا على الاطلاق . فنحن جميعا لنا نفس الأفكار ولكن . قليل منا الأمين بدرجة تكفى لأن يصرح بهذا .

وأثناء هذه المحادثة بدا أن السيد باوندرباى على وشك الانفجار . أصبح وجهه ككرة كبيرة حمراء وقد قاطع الحوار فجأة قائلا :

- سيد هارتهوس ، انه ينبغي أن تزور بعضا من أعيان هذه البلدة وأنا جاهز لاصطحابك الآن . بعد هذا لا بد أن تتناول طعام العشاء معنا هذا المساء .

وهكذا تمت الزيارات وقد تكلم هارتهوس جيدا مع كل السادة والوجهاء ، ولكن العمل أتعبه وعلى مائدة العشاء فى منزل السيد باوندرباى ، كانت هناك أربعة مقاعد ، ولكن الجالسين كانوا ثلاثة فقط وقد أخذ السيد باوندرباى يتحدث عن الشارع حيث ولد ، بينما كانت الحسابات الطويلة قد أتعبت السيد هارتهوس بالفعل .

١٥٢

حتى انه فكر أن يذهب الى الهند ثانية أو أن يذهب الى مصر ، ربما فعل هذا لو لم تملأ لويزا حيزا كبيرا من أفكاره . كان يتساءل فى نفسه قائلا :

- هل هناك شيء فى العالم . يمكنه أن يحرك عضلات وجهها ؟!

أجل ، هناك هذا الشيء ، فقد فتح الباب ودخل أخوها توم فتغير وجه السيدة بمجرد أن رآته . كانت لها ابتسامة جميلة حقا ! مدت يدها وعانقت أصابعها أصابع توم بقوة ، فقال جيم فى نفسه :

- « آه . نعم . ان هذا الجرو هو جيبها الوحيد » !

وتم تقديم الجرو وجلس الى المائدة ، لم يكن اسما لطيفا ، ولكن ربما كان توم يستحقه .

قال باوندرباى :

- لقد تأخرت يا توم الابن ، لماذا ؟

١٥٣

وأخيها ، لم يكن هناك الكثير في الشاب الصغير . كان غرا . . وكان أحيانا فظا حتى مع أخته ، فقال جيم في نفسه :

« لا بد أن قلبها يعانى الوحدة ، فإذا كان هذا الجرو يستحوذ على كل حبها ، فإن قلبها حتما يعانى الوحدة » !!

— كان عندى عمل كثير يجب أن أنهيه ، على أى حال لا يهم أنى تأخرت ، اليس كذلك ؟

فقال باوندرباى :

— ان السبب لا يجب أن يتأخروا عن موعد الطعام .

وفهم جيم مشكلة هذا المنزل . قال محدثا لويزا :

— مسز باوندرباى . ان وجه أخيك يبدو مألوبا لى فهل ترانى قابلته فى المدرسة ، أو فى الشرق . ربما ؟

فاجابت لويزا قائلة :

— ، لقد تعلم هنا ، فى البيت وهو لم يسافر خارج انجلترا للآن . . أم نراك سافرت يا توم ؟

— لم أكن محظوظا بما فيه الكفاية يا سيدى لكى أسافر خارج انجلترا . .

وطوال العشاء كان جيم يفكر فى مسز باوندرباى

١٥٤

١٥٥

— حسنا . مسيو هارتهوس هل برمت بالسيد باوندرباى الليلة ؟

— انه شخص ممتاز . . !

— هل تعتقد هذا .

فابتسم « هارتهوس » بلا مبالاة وقال :

— ان له أخ زوجة طريفا . .

فقال « توم » :

— أنت تقصد ، أن باوندرباى العجوز زوج أخت مضحك للغاية .

— أوه ! هذا ليس لطيفا يا توم !

كان توم مسرورا بنفسه ومعجبا بهارتهوس . . وبملايس هارتهوس . . بصوت هارتهوس ، كما أعجبه أن يناديه بتوم . . هكذا بسرعة . كانت أمسية رائعة !

١٥٧

الفصل الثانى عشر

بعد العشاء وأثناء الأمسية التى قضها « جيم » فى منزل عائلة باوندرباى ، حاول « جيمس هارتهوس » أن يشجع « توم » الابن على الكلام . . كان ينسوى أن يجعله يحبه . أخيرا حان وقت ذهاب جيم الذى قال أنه لا يستطيع تذكر طريق العودة الى الفندق فعرض الجرو أن يصحبه ليريه الطريق . وفى الفندق أمر جيم بالشراب له ولصديقه ، وجلس توم على مقعد طويل مريح . كانت المشروبات التى أحضرها الساقى قوية . وبدأ « توم » الحديث قائلا :

١٥٦

قال « توم » :

- انى لم أكن أى حب لباوندرباى العجوز فى يوم من الأيام ، ولست أنوى أن أفعل .

- انك لا تستطيع أن تقول هذا الكلام بالقرب من زوجته . أم تراك تستطيع ؟

- أختى ؟ أوه أجل ! ..

وأخذ « توم » جرعة كبيرة من كأسه ثم استأنف حديثه قائلا :

- ان « لوو » لا تحب باوندرباى العجوز هى الأخرى !

فقال « هارتهوس » :

- انك لا تعنى ما تقول !

- بل .. اعنيه . ان هذا صحيح .. انها لا تحبه .

١٥٨

- جدا !

- لم يكن مهما بالنسبة لها أن تعرف رجلا آخر فبيتنا كان كالسجن .. خاصة حين غادرته أنا .. ولكن الأمر كان هاما بالنسبة لى فقد كان على أن أفكر فى رفاهيتى وربما فى مستقبلى ، ولو كانت طيبة جدا فيما يتعلق بهذا .

قال هارتهوس وهو يصب مزيدا من الشراب :

- أجل بالتأكيد ، وهى تبدو سعيدة تماما .

- حسنا ، ان الفتاة يمكن أن تكون سعيدة فى أى مكان بالإضافة الى ان « لوو » ليست فتاة عادية . ففى إمكانها أن تغلق على نفسها داخل نفسها وتفكر .. فقط تفكر أحيانا بالساعات !

- أجل ، أجل ، ويمكنها أن ترفه عن نفسها !

- لا .. لا أعتقد هذا فقد ملأ أبى عقلها بكل أنواع المعلومات والحقائق الجافة . هذه هى طريقته - لقد شكلها .. جعلها مثله تماما ؟

١٦٠

- ولكنها تزوجته يا نوم ويبدو انهما يعيشان فى سعادة سويا .

- أنت تعرف أبانا . أنه ليس بالأمر المدهش ان تتزوج « لوو » من « باوندرباى » العجوز . انها لم تعرف فى حياتها رجلا آخر وقد اقترح أبى « باوندرباى » العجوز وقبلته « لوو » .

- هذا هو واجب البنت الطيبة !

- بل قل .. واجب الأخت الطيبة ..

لم يعلق هارتهوس بينما استطرد الجروفى الكلام :

- لقد أقنعتها أن تتزوج باوندرباى العجوز ، فقد كنت أقحمت على مصرفه بالرغم من أنى لم أكن أود أن اعمل هناك ، وإذا كانت لويزا قد رفضت باوندرباى العجوز ، فانى كنت سأقع فى متاعب كثيرة لقد أخبرتها بهذا ووافقت هى على الزواج به .. انها كانت على استعداد أن تفعل أى شئ من أجل .. انها طيبة جدا .. أليس كذلك .

١٥٩

- أجل وفعل نفس الشئ مع كل من حوله لقد شكلنى أنا أيضا بنفس الطريقة !

- لا يا توم ، لست أنت !

- بل فعل يا سيد هارتهوس ، لقد كنت غيبيا تماما .. كنت حمارا .. عندما تركت البيت لم أكن أعرف أى شئ عن الحياة .

- أوه ! .. هذه نكتة يا توم ، أنا لا أصدق هذا .

- بل هى الحقيقة ! ..

ومرة أخرى أخذ توم جرعة كبيرة من الشراب ووضع قدمه فوق المقعد واستطرد قائلا :

- بالطبع . لقد تعلمت القليل منذ هذا الوقت وقد فعلت هذا بنفسى ولا فضل لأبى فيه .

- وأنتك الذكية ؟

- أختى الذكية لم تتغير ، فقد اعتادت أن تشكو لى أنها لا تتمتع بأفكار الفتاة العادية وأنها

اوقات عصيبة ١٦١

لا تعرف أى شيء عن الحياة وعن الحب • ولكن البنات
يختلفن عن الرجال • لأنهن لا يحتجن الكثير •
توقف توم عن الكلام فقد راح فى النوم وهو
على المقعد ، فركله هارتهاموس وهو يقول :
- ان الوقت متأخر ، قم وعد الى البيت !

فوقف توم وقال :

- هذه المشروبات كانت جيدة ولكنها لم تكن قوية
بما فيه الكفاية بالنسبة لى •
- لا لم تكن قوية بما يكفى •
- كانت مثل الماء •• آه •• حسنا ، طاب
مساؤك •

وحمل الساقى توم الى الشارع • كان
باستطاعته أن يمشى الى البيت وحده ، لكن •• لم
يكن باستطاعته أن يتذكر ما قال !

١٦٢

الفصل الثالث عشر

شكل عمال النسيج فى كوتناون نقابة تحت قيادة
« سلاكبريدج » • لم يكن سلاكبريدج عاملا بل كان
متحدثا وخطيبا وحسب ، كان يريد أن يحصل العمال
على أجور أعلى وظروف معيشية أفضل • وبالرغم من أن
سلاكبريدج لم يكن رجلا عادلا أو أميناً جدا •• الا أن
العمال وافقوا عليه وانضموا جميعا - ماعدا رجل
واحد - الى النقابة ، وفى كل أسبوع كان العمال يدفعون
بعض البنسات لسلاكبريدج •

وفى احدى الأمسيات ، عقد العمال جميعا اجتماعا

١٦٣

بعد هذا صافح الرئيس ستيفن بلاكبول ثم
جلس •• وجلس سلاكبريدج أيضا • ثم بدأ بلاكبول
فى الكلام :

- أيها الزملاء •• اننى العامل الوحيد فى مصنع
نسيج باوندرباى الذى لم ينضم الى النقابة • ولن أنضم
اليها • ان النقابة لا يمكنها أن تساعدنى ، كما انى لا
أعتقد أنها ستساعدكم • كما ان لدى أسبابى الخاصة
لعدم الانضمام لهذه النقابة ، وهى أسباب سرية ولكنها
على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لى :

فانتفض سلاكبريدج من مقعده ، وأخذ يصيح :

- هذا الرجل سوف يدمركم •• سوف يدمركم
أنتم وأطفالكم وأطفال أطفالكم •

فقال ستيفن :

- ان السيد سلاكبريدج خطيب والخطابة هى
صنعتة وهو يأخذ أجره عليها ، اذن فليؤد عمله ولتدعونى
أؤدى عملى ، انه لا يعرف آلام حياتى •• انها مشكلتى ••
مشكلتى وحدى •

١٦٥

فى صالة واحدة كبيرة • راس الاجتماع أكبر العمال
سنا • وفى هذا الاجتماع أخذ سلاكبريدج يخطب ويثنى
على النقابة وفى نفس الوقت يذكر بسوء هذا الرجل
الذى رفض الانضمام للنقابة •

فصاح أحد المجتمعين :

- من هو هذا الرجل ؟ اذا كان هنا الليلة فدعه
يتكلم !

وفى الحال تصاعدت أصوات كثيرة :

- نعم ، فلنستمع اليه ، يجب أن يأخذ فرصته
فى الكلام !

فصعد رجل على المنصة • كان وجهه يبدو مرهقا
وينم عن كبر فى السن ، ولكنه أيضا •• كان وجهها
شريفا • فقال الرئيس :

- ان السيد سلاكبريدج يجب أن يكون عادلا ،
ولهذا يجب أن يجلس بينما تصغى جميعا « لسعيفن
بلاكبول » وأنكم جميعا تعرفون ستيفن الطيب وتعرفون
مشكلته •

١٦٤

فصاح أحد الحاضرين قائلا :

- اجلس يا سلاكيريدج دع الرجل يأخذ فرصته في الكلام !

فاستأنف ستيفن حديثه :

- زملائي العمال .. اننى أعرف ما سيحدث ، فإذا لم أنضم لنقابتكم فانكم ستعزفون عن صداقتى ، ولا بد لى أن أقبل هذا .

فقال الرئيس فى تودد :

- فكر مرة أخرى .. قبل أن يفوت الآوان .

فرد ستيفن :

- لقد فكرت فى الأمر كثيرا يا سيدى ، فوجدت أنى ببساطة .. لا أستطيع الانضمام لنقابتكم .

لم يكن ستيفن غاضبا من هؤلاء الرجال ، انه يعرفهم جيدا وهم أيضا يعرفونه .. ولهذا استمر فى حديثه معهم فى ود ظاهر قائلا :

- كل ما يجب على أن أفعله هو أن أعمل ..

بمفردى .. بينكم .. وآمل أن تسمحوا لى بذلك .. لأنى يجب أن أعمل لأعيش يا أصدقائى .. لقد عملت فى كوكتاون منذ طفولتى .. فأين عسأى أن أذهب الآن ؟

وران الصمت على المكان .. نزل ستيفن من فوق المنصة وتحرك الرجال فأفسحوا له طريقا الى الباب .. لم ينظر ستيفن فى وجه أى منهم ، وسار مباشرة نحو باب الخروج وفى دقيقة كان خارج القاعة ..

صاح سلاكيريدج :

- ليس بيننا مكان لرجل شرير .. يا عمال كوكتاون قوموا بواجبكم ! والآن فلننتف ثلانا لنقابتنا !

وصرخ الخطيب بأول « هوراه » .. ثم شاركه عشرون صوتا فى الثانية .. ثم صاح الجميع بالثالثة .

وهكذا بدأ ستيفن بلاكبول حياة وحيدة .. موحشة .. فلم يعد ينظر فى وجهه رجل فى المصنع أو فى الشارع .. ولا أحد يكلمه ولو كلمة واحدة ، حتى النساء اللاتى كان يعمل معهن التزمّن الصمت .. حقا

وبصوت عال سأل باوندرباى ستيفن بلاكبول قائلا :

- حسنا ، يا ستيفن ماذا فعل بك رعاك كوكتاون ؟ كان فى الغرفة أربعة أشخاص يتناولون الشاى .. السيد باوندرباى ، زوجته ، أخوها ، والسيد النبيل القادم من لندن .. بينما وقف ستيفن يحتضن قبعته عند الباب استأنف باوندرباى حديثه قائلا :

- هيا .. أسرع يا ستيفن ، خبرنى ، فهأندا أنتظر .

يا له من صوت أجش .. لم يكن ستيفن يحب سماعه خاصة بعد أربعة أيام من الصمت التام .. وقال ستيفن .

- لقد تسلمت رسالتك يا سيدى .. ان شابا قال لى أنك تريد أن تتحدث الى ..

- حدثنى عن نفسك .. وعن هذه النقابة !

- آسف يا سيدى .. ليس عندى ما أقوله فى هذا

المصدد .

فزفر باوندرباى بصوت كصوت رياح عاتية .. ثم قال :

ان ستيفن كان دائما رجلا هادئا .. ولكنه الآن يشعر بوحشة كاملة .. لم يعد يرى راشيل وفى نفس الوقت هو يخاف أن يبحث عنها .

وصبغت الأيام التى أعقبت الاجتماع ثقيلة وطويلة .. وفى الليلة الرابعة غادر ستيفن المصنع فى موعده المعتاد وبينما هو سائر أوقفه شاب له شعر فاتح اللون .. كان بيتزر !

قال بيتزر لستيفن :

- أنت بلاكبول اليس كذلك ؟

ومن فرط سعادة ستيفن لسماع صوت انسان يخاطبه ، رفع قبعته تحية للشاب واجابه :

- بلى ، يا سيدى .

- ان السيد باوندرباى يريد أن يراك .. فهل نعرف أين .. سكن ؟

- أجل .

- اذن اذهب اليه .. انه فى انتظارك !

- لم أكن لأقول شيئا عن هذا يا سيدى ، ولكنك سألتنى ولهذا سأجيب . لقد قطعت على نفس عهدا بهذا .

- لا يا سيدى . ليس لك .

فصاح باوندرباى :

- بالطبع ليس لى ! فهؤلاء الأشخاص لا يفكرون فى مطلقا . . . أوه . . . لا !

استدار ستيفن الى السيدة باوندرباى قائلا :

- لا يا سيدتى ، ليسوا رعاعا ، ولا لصوصا ، أنا أعرف أنهم لم يكونوا رحيمين بى . ولكنهم جميعا يعتقدون أنهم يقومون بواجبهم . وهذه هى الحقيقة . أنا أعرفهم جيدا . لقد عشت بينهم حياتى كلها . يجب أن أقول الحقيقة فيما يتعلق بهم . أنهم شرفاء وصادقون وطيبون وهم أيضا أناس ظرفاء ومحبوون .

قهقه باوندرباى وقال وهو يضحك :

- ولكنهم لا يحبونك يا ستيفن !

١٧١

- سيدى ، أنا لست متحدثا لبقا ، ولكنى أعرف مشاكلهم . أنا نعيش فى مدينة غنية جدا . . . وفى نفس الوقت هى مدينة فقيرة جدا . آلاف العمال يعملون فى المصانع ، وهم جميعا يؤدون نفس العمل وقد بدأوا حينما كانوا أطفالا صغارا . . . وهم لا يتوقفون عن العمل حتى يلحقهم الموت . سيدى . . . أنظر الى بيوتنا . . . انها صغيرة . . . مظلمة ومزدحمة . . . ليس لدينا أمل فى شيء طيب فى حياتنا . . . فى عدا الراحة الطويلة التى تأتى فى النهاية ! . . .

واستمر ستيفن فى الكلام :

- انك تتحدث عنا يا سيدى . . . وتكتب عنا ، وتتحدث فى البرلمان باسمنا . . . وأنت دائما على حق . . . بالطبع . . . ونحن دائما مخطئون ! ان حياتنا عبارة عن « لخبطة » يا سيدى « لخبطة » عظيمة !

فقال باوندرباى :

- وكيف . . . كيف نصحح هذه اللخبطة ؟

١٧٣

- هل تسمح هذا يا هارتهوس . هذا واحد من « الأيدى » التى تعمل عندى . وقد كنت أعتقد أنه بدأ ينحدر . وقد حذرته ، والآن هؤلاء الحمقى وصموه وهو يخاف أن يفتح فيه !

- لست خائفا يا سيدى ، ولكن ليس عندى شيء أخبرك به .

- هذا مضحك يا ستيفن ! هل تريد أن أصدق أن « سلاكيريدج » لا يسبب المشاكل هنا :

- أنا أسف يا سيدى . فعندما يكون زعماء الناس اشرارا فهذا ليس ذنب الناس ، لأنهم ليس باستطاعتهم الحصول على زعماء أفضل !

- والآن . . . هارتهوس . . . اسمع لهذا وسوف تتعلم شيئا عن متاعبنا . . .

قال باوندرباى هذا ثم نفخ زفيره الحاد واستأنف حديثه متوجها الى ستيفن :

- خبرنى يا ستيفن . . . لماذا رفضت الانضمام لهذه النقابة ؟

١٧٠

- انهم يحبون كل زملائهم العمال يا سيدتى . . . وأنا زميل . . . عامل . . .

واستمر ستيفن فى توجيه كلامه لمسز باوندرباى :

- ان الأشياء الطيبة فيهم - كالشرف والواجب - تسبب لهم أحيانا المتاعب وتدفعهم أحيانا لارتكاب بعض الأخطاء . . . لكنهم يحبون اتيان الشيء الصحيح والخطأ ليس دائما خطاهم .

تملك الغضب من باوندرباى ، فهذا الموضوع ليس من شئون مسز . . . ندرباى حتى يوجه لها ستيفن الكلام بهذا قال :

- اسمع يا ستيفن . ان هذا السيد - وأشار لهارتهوس - عضو فى البرلمان جاء من لندن وهو يريد أن يتقصى الحقائق ، والآن أخبرنى ، أرجوك ما الذى تشكو منه ؟

- أنا لا أشكو يا سيدى ، لقد جئت الى هنا لأنك طلبت أن تتحدث الى . . .

- حسنا ، فما الذى يشكو منه « الأيدى » ؟

١٧٢

- ليس بإمكانى الإجابة على هذا يا سيدى .
انها مهمة الزعماء .. هنا وفي البرلمان .

فصرخ باوندرباى قائلا :

- أعرف ! سوف نقبض على سلاكبريدج وأماله
ونضعهم فى السجن .

فهز ستيفن رأسه وقال :

- هذا لن يغير شيئا ، يا سيدى . فاللخبطة هنا ..
كانت موجودة قبل مجيء سلاكبريدج ..

ثم أشار الى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال :

- انك اذا وضعت هذه الساعة فى السجن ، فان
الزمن لن يتوقف يا سيدى !

فنظر باوندرباى بسرعة وحدة الى ستيفن ثم حرك
عينيه تجاه الباب . ففهم ستيفن ووضع يده على مقبض
الباب ليخرج ، ولكن كان عليه أن يدافع عن شرف من
ينتمى اليهم - أولا - فنظر الى السيد هارتهاموس وقال:

- اننى لست رجلا متعلما يا سيدى ولا أعرف

١٧٤

- انك تسبب الكثير من المشاكل ، لدرجة أنه حتى
النقابة قد ضجرت منك . لم أكن أبدا أعتقد أن هؤلاء
الرعاع يمكن أن يكونوا على صواب فى أى شيء . ولكنى
الآن أوافقهم .. لأنى أنا أيضا ضجرت منك !

**فرفع ستيفن عينيه بسرعة فى وجه باوندرباى
الذى قال له :**

- خذ أجرك فى نهاية الأسبوع ، ثم اذهب الى مكان

آخر .

فقال ستيفن :

- ولكن سيدى ، اذا لم أستطع أن أعمل معك ..
فلن يكون باستطاعتى أن أجد عملا فى أى مكان آخر ..
أنت تعرف هذا يا سيدى !

- وهذه مشكلتك أنت !

فنظر ستيفن الى مسز باوندرباى .. ولكنها لم
تكن تنظر اليه ، فاستدار الى الباب وغادر الغرفة .. !!

١٧٦

السبيل لانهاء هذه اللخبطة ، ولكنى أعرف الأشياء التى
لا يمكن أن تصلحها ، فاستعمال اليد الحديدية لن
تصلحها .. والسلبية التامة لن تصلحها . واذا فرضنا
أن أحد الجانبين دائما على حق فان الجانب الآخر سيكون
دائما على خطأ ، وهذا أيضا لن يصلحها .. هناك عالم
أسود فارغ بين الجانبين يا سيدى .. وبقاؤهما متباعدين
هكذا لن يصلح هذه « اللخبطة » فنحن رجال ونساء ..
ولسنا أرقاما ميتة أو آلات .. ان لنا قلوبا وعواطف
.. أمنيات وذكريات و .. مخاوف ، هلكنم تصامما
يا سيدى !

ثم فتح - ستيفن الباب ووقف ينتظر . فى الوقت
الذى أصبح فيه وجه باوندرباى شديد الحمرة ، ثم قال
باوندرباى :

- آه يا بلاكيول .. انها الملعقة الذهبية ثانية !
أنتم دائما تتشاكرون . هذه هى مشكلة حياتكم ، أليس
كذلك ؟

فهز ستيفن رأسه وقال :

- اننى لست الا عامل نسيج يا سيدى !

١٧٥

الفصل الرابع عشر

كان الظلام قد بدأ يزحف على المدينة حينما غادر
ستيفن منزل باوندرباى . وفى الطريق كانت فى انتظاره
مفاجأة ، فى الحقيقة .. مفاجأتان .. فقد قابل هذه
العجوز الغريبة التى كان قد قابلها منذ أكثر من عام
أمام بيت السيد باوندرباى . أما المفاجأة
الثانية .. فهى أن راشيل كانت بصحبة السيدة العجوز!

فقال :

- آه ! راشيل .. عزيزتى ! وأنت أيضا
يا سيدتى ! هل أنت معها ؟

١٧٧



فاجأت السيدة العجوز :

- نعم يا سيدى ، بالرغم أننا لم نتقابل إلا الآن .
كنت أرقب بيت السيد باوندرى منذ الصباح ، فقد
سمعت أنباء عن زواجه وكنت أأمل أن أرى زوجته .
ولكنها لا تغادر البيت مطلقا ، ثم .. ومن عشر دقائق
فقط أخذت أتكلم مع هذه الشابة الطيبة وأخذت تتكلم
معى ..

مرة أخرى شعر ستيفن أنه لا يحب هذه المرأة .
لم يكن يفهم هذا الشعور ، لأنها كانت تبدو امرأة طيبة
وبسيطة . وعلى أى حال فقد أجابها بطريقة المهذبة
المعتادة قائلا :

- حسنا يا سيدتى .. أنا رأيت السيدة باوندرى ،
إنها شابة جميلة . عيناها السوداوان مملوءتان بالفكر
وطريقتها هادئة .

- صغيرة وجميلة ! أجل ، وسعيدة ؟

فقال ستيفن بتردد :

- انى .. أفترض هذا .

- هل ستبقين فى كوكثاون الليلة يا سيدتى ؟

- نعم ، سأقضى الليلة فى الفندق الصغير المجاور
للمحطة ثم أعود لبيتى فى الصباح .

- تفضلى عندى يا سيدتى لتناول قدحا من الشاي
وستأتى راشيل أيضا . بعد هذا سأوصلك للفندق
يا سيدتى . فقد يمر وقت طويل قبل أن يتسنى لنا أن
نلتقى ثانية يا راشيل .

وافقت المراتان ، ووصلوا جميعا الى الشارع
الضييق حيث يعيش ستيفن الذى نظر بخوف الى أعلى ،
فوجد نافذته ما زالت مفتوحة كما تركها فى الصباح .
ولم يكن ثمة أحد . فقد فرت زوجته منذ شهور مضت ،
وكان على ستيفن أن يشتري أثاثا جديدا للبيت . انه
لا يعلم أين ذهبت ..

أشعل ستيفن المصباح ثم أخذ يعد الشاي بينما
كانت راشيل تقطع بعض الحبز والزبد . استمتعت
السيدة العجوز بالعشاء وبدت عليها السعادة .. وسألتها
ستيفن :

- تفترض ؟ بل لا بد أن تكون سعيدة ! إنها
زوجة رئيسكم !

فنظر ستيفن الى راشيل نظرة لها مغزى وقال :
- لن يكون رئيسى بعد هذا الأسبوع .

فتساءلت راشيل بقلق بالغ :

- هل تنوى ترك المصنع ؟

- يجب على أن أفعل . ان هذا افضل شئ .. لى
والعمال أيضا . يجب أن أرحل عن كوكثاون وأبحث
عن عمل فى أى مكان آخر .

- وأين ستذهب يا ستيفن ؟

- لا أدرى ، ولكنى سأجد مكانا ..

كان يكره أن يترك راشيل ولكن هذا سيكون افضل
لها ، فالعمال لن يصبوا منها ان هو رحل . وقال :

- انى أشعر أن روحى أخف الآن يا راشيل !

فابتسمت له بحنان وسار ثلاثتهم ، وسأل ستيفن

السيدة قائلا :

- اننى لم أسألك قط عن اسمك يا سيدتى ؟
- اسمى مسز « بيجلر » . وقد مات زوجى منذ
سنتين . كان رجلا طيبا جدا .

- اننى آسف يا سيدتى . هل لديك أبناء ؟
فارتعش القدرح فى يد مسز بيجلر وأجابت متلعثمة :
- لا . لم يعد لى أبناء . لم يعد لى !

فهمست راشيل لستيفن قائلة :

- مات يا ستيفن !

فقال ستيفن بحزن :

- أعتذر يا سيدتى لتوجيهى هذا السؤال . أننى
ألوم نفسى لأنى . .

فقالت السيدة العجوز :

- كان لى ولد . . كان يعمل بجد واجتهاد ، ولكنى
لا أحب أن أتكلم عنه لأنه . . لقد فقدته !

١٨٢

أخذ ستيفن المصباح ونزل الى أسفل ، ثم عاد
بصحبه لويزا ثم دخل « الجرو » فى اثرهما : كانت
هذه أول مرة تزور فيها لويزا بيت أحد العمال فى
كوكتاون . كانت تعرف الكثير من الحقائق الجافة عن
هؤلاء الناس وعن حياتهم ، كانت تعرفهم كما تعرف . .
الحشرات التى درستها فى كتب العلوم ، انهم يبنون
أعشاشا ويعملون ، وهذه الغرفة . . كانت أحد
أعشاشهم !

أخذت لويزا تحيل البصر فى الغرفة للحظات
ولاحظت قطع الأثاث القليلة المتناثرة فيها ورات أيضا
بعض الكتب و . . المراتين . وخمنت لويزا أن المرأة
الصغيرة ليست زوجة ستيفن . فى هذا الصباح كان
ستيفن يتوجه بحديثه الى مسز باوندرباى والآن وبئفس
الطريقة توجهت مسز باوندرباى بحديثها الى راشيل :

- لقد جئت لأساعدكم ، اذا سمحتم لى ، هل
تعرفين ماذا حدث ؟ هل أخبرك ؟

- أخبرنى بأنه سيتترك العمل فى المصنع .

١٨٤

فى اللحظة الدالية سمع الجميع ضوضاء على درجات
السلم ، فذهب ستيفن وفتح الباب فوجد المرأة التى
تملك المتجر الذى يقع أسفل غرفته . . فكلما . . وسمع
الجميع - راشيل ومسز بيجلر - المرأة وهى تنطق باسم
« باوندرباى » . ففزعت مسز بيجلر وانقضت واقفة
وهى تقول :

- أوه ، خبثونى . . لا تدعوه يرانى . . أرجوكم !!

فتساءل ستيفن فى دهشة :

- ماذا بك يا مسز بيجلر ، انه ليس السيد
باوندرباى ، بل السيدة زوجته ولا اعتقد أنك تخافين
منها . أليس كذلك ؟ منذ ساعة كنت تظنين أنها سيدة
رائعة !

فقالت مسز بيجلر :

- هل هى السيدة . . أنت واثق ؟!

- تمام الثقة !

- اذن . . سوف أقف هناك فى الركن . . وأرجو
ألا تتحدث الى .

١٨٣

- وعندما يترك العمل فى مصنع زوجى . . أن
يستطيع أن يعمل فى أى مكان آخر فى كوكتاون . هل
هذا صحيح ؟
- أجل ، أيتها السيدة الشابة ، فالكل قد وضعوه
فى القائمة السوداء . .

فقاطعتها لويزا قائلة :

- ان أصدقاء العمال سيرفضون العمل معه لأنه
فض الانضمام الى نقابتهم ، ولنفس هذا السبب لن
يقبل أى صاحب عمل الحاقه بمصنعه . قولى لى . . هل
نعهد لك بالألا يلتحق بالنقابة ؟

فاجهشت راشيل بالبكاء وقالت من خلال دموعها :

- لم أكن أود هذا ، آه يا رجلى المسكين ، كنت
فقط أود أن ينأى بنفسه عن المشاكل . . من أجله هو
لم أكن أبدا أعتقد أنه سيفقد وظيفته . . والآن . . الآن
هو يفضل الموت على أن يحثن بوعده .

فأخذ ستيفن يدها فى يديه بحنان وقال لها :

- اننى أحمل لك حبا وتقديرا عظيمين يا راشيل ،

١٨٥

ليلة الخميس . غادر غرفته قبل الخامسة صباحا .
كانت الطرقات خالية تماما .

وبعد ساعتين ألقى نظرة للخلف من فوق تل .
كانت السماء تشرق ساطعة فوق المدينة ، وكانت
الأجراس تدق ايذانا ببدء العمل والدخان الأسود بدأ
ينصاعد للسماء . .

وأحس ستيفن وكأنه صبي صغير وسمع صوت
تغريد الطيور عاليا حوله . . كأنه رسالة غرام من
راشيل . . !

الفصل الخامس عشر

يمتلك السيد هارتهوس حصانا يركبه عندها
يكون متوجها لحضور اجتماع ما ، كما أنه أحيانا يكون
عليه أن يسافر الى قرى تبعد عدة أميال . ومن الجدير
 بالذكر أن أعماله في المدينة لا تستهلك الكثير من وقته .
فهو يلقي بعض الخطب والمحاضرات ، وهو رجل محبوب .
أما أفضل أصدقائه فهم آل باوندرباي . . وأفضلهم على
الأطلاق هي . . مسز « باوندرباي » !
كانت لويزا معجبة ببعض أفكاره البوهيمية .
كانت تذكر دائما قوله : « ان ما قدر له أن يكون . .

١٩١

١٩٠

صغير غير بعيد عن البيت والقطارات تمر كثيرا فادمة
من أو ذاهبة الى كوكناون .

وكانت للبيت حديقته الخاصة . . كانت هناك
أشجار كثيرة ومقاعد مريحة في الظل الرطيب في اتجاه
كوكناون ، وكانت تلال الفحم القديية تترك علامات
سوداء على الطريق ، كانت الأعشاب تنمو حول المباني
الحالية وتكاد أن تخفيها، كما كانت الأعشاب والحشائش
تغطي بعض قمم التلال القديية . كان المكان يبدو خطرا
خاصة في الليل . ولكن البلدة كانت تبدو منتعشة
وخضراء فسخان كوكناون كان بعيدا .

أحبت لويزا المكان، ومكثت هناك معظم فترات هذا
الصيف الحار . بينما كان يذهب السيد باوندرباي الى
هناك فقط أثناء الليل أو في أيام الآحاد . وهو لا يمتطي
الحيل في معظم الأحيان ولكن كان هناك اسطبل لدسته
من الحيل وقد دعا السيد هارتهوس للاقامة في هذا
البيت الريفي . فقد قال له السيد باوندرباي :

— لن تحتاج لأن تدفع أجر اسطبل في كوكناون . .

١٩٣ اوقات عصيبة

حتما سيكون ، فهذا القول كان يتفق بصورة مع بعض
معتقداتها . ولكن السيد هارتهوس كان يعتقد أن كل
الأشياء عديمة الأهمية . . فارغة . ولويزا لا توافق على
هذا الرأي على اطلاقه . ولكن هذا الرأي لم يكن جديدا
عليها بالتأكيد ! وهو رأي غير ضار أيضا . كانت لويزا
تستمتع بالحديث معه .

لاحظ هارتهوس تغيرا طفيفا فيها وتذكر كل ما
قال له أبوها . فبدأ يفهمها . . ببطء . . وبدأ يفهم
أسلوبها . بالطبع . . هو لم يتسنى له أبدا أن يعرف
مدى عمق وقدرة عقلها ، فعقله كان ضيقا جدا على هذا .
وقد اعتاد أن ينظر اليها ويقول في نفسه :

— « ان وجهها يصبح جميلا حقا حين ترى «الجرو» .
لكن أتمنى أن يصبح وجهها بهذا الجمال من أجلي » !

كان السيد باوندرباي قد اشترى بيتا في الريف ،
فقد أعجبته الى حد ما فكرة أن يكون عنده بيت في المدينة
وبيت في الريف . . كان بينه الريفى بيتا كبيرا يبعد
خمسة عشر ميلا من كوكناون . . وكان هناك خط حديدي

١٩٢

احتفظ بحصانك هنا ويمكنك أن تبقى أنت أيضا ..
إذا كنت تحب هذا ..

فى يوم من أيام الصيف الحارة .. على مقعد فى
الحديقة .. تحت الظل الرطيب .. والسيد هارتهوس
يحاول أن يجعل وجه لويزا يتسم من أجله .. جلس
الى جوارها عصر هذا اليوم وقال :

- آه مسز باوندرباى ، انى اود أن أتحدث اليك
فى موضوع يخص أخاك ، صديقى الشاب توم ..

وفى الحال توردت حدود لويزا فقال هارتهوس
فى نفسه : « رائحة الجمال حقا » ..

ثم استأنف حديثه قائلا :

- سامحيني يا مسز باوندرباى ، ان النظرة التى
اطلعت من عينيك لتثير الغرور فى نفس توم ، لم أكن
أستطيع تجنب ملاحظتها ، كما انى معجب بها ..

- اننى أنتظر يا سيد هارتهوس ، ماذا تحب أن
تقول .. يا يخلص توم ؟

١٩٤

- أنت شديدة معي ، وأنا أستحق هذا ! فانا كلب
عديم الأهمية ، أعرف هذا .. لكننى لست منافقا ..
اننى مهتم بأخيك !

- هل هناك - حقا - شيء يهيك فى الدنيا يا سيد
هارتهوس ؟

- فيما يخص توم .. نعم .. لقد فعلت الكثير من
أجله .. بل ان حياتك كلها تدور حوله ..

فتحركت لويزا فجأة على مقعدها .. واستنرد
هارتهوس :

- ولكن سامحيني - ثانية .. فانا مهتم به من
أجله هو ...

ثم ابتسم وقال :

- ليس بذات أهمية اذا ما كان شابا ما عديم
التفكير .. جاحدا أو .. فظا بعض الشيء أو اذا ..
أنفق كثيرا ، حسنا .. هل توم له هذه الخصال ؟
- أجل !

١٩٥

- هذا صحيح .. صحيح تماما

- حسنا ، إذن - مسز باوندرباى - اننى مستعد
لتقديم المساعدة .. ان لى بعض الخبرة فى مثل تلك الأمور ،
وإذا أخبرتنى الحقيقة ف ..

ولكن لويزا قاطعته :

- حاول أن تفهمنى يا سيد هارتهوس ، أنا لا
أشكو شيئا ، كما ترى انى غير آسفة على أى شيء
فعلته ...

فقال هارتهوس فى نفسه : « ملوئة شجاعة
أيضا ! »

بينما استمرت مسز باوندرباى فى حديثها :

- ان أخى اقترض منى بعض المال منذ عام أو
يزيد .. بعت بعض المجوهرات ..

توقفت لويزا عن الكلام ونظرت الى السيد
هارتهوس .. لقد باعت بعض المجوهرات التى اشتراها
لها زوجها .. هذه هى الحقيقة .. يمكن حتى للانسان

١٩٧

- وهل يقامر ؟

- أعتقد هذا ..

وبعد لحظات من الصمت عادت لويزا وقالت :

- أجل .. انى أعرف انه يقامر ..

- وبالطبع .. يخسر ؟

- أجل ..

- ان كل من يقامر يخسر بعض المال ، هل لى

أن أسأل .. هل تمدينه أحيانا بالمال الذى يقامر به ؟

ان هذا ليس من شأنى ، أعرف ولكننى أعتقد أن توم ربما

يعانى بعض المتاعب ، وأحب أن أساعده اذا كان هذا

ضروريا .. ومن أجله .. طيبا ..

لم تقل لويزا شيئا فاستنرد هارتهوس فى

حديثه :

- ان توم لا يتمتع بمزايا كثيرة ، ربما لم تعده

أفكار والده المحترمة لمثل هذا .. العالم القاسى ..

والسيد باوندرباى رجل طيب وقوى - هذه حقيقة -

ولكنه ليس بالشخص الذى يلجأ اليه توم عندما يقع

فى المتاعب ..

١٩٦

الغبي ان يخمنها ، وهارتهاوس لم يكن بالانسان الغبي .
ثم اكملت لويزا حديثها :

• منذ هذا التاريخ أعطيت أخى الكثير من المال .
ومنذ أسبوعين طلب منى مائتى جنيه ، ولم يكن عندى
هذا المبلغ . وانى لقلقة جدا عليه يا سيد هارتهاوس .
ولكنى لم أخبر أحدا سواك بهذا السر .

فقال هارتهاوس بهدوء :

• ان توم لم يكن حكيما ، كل الرجال تأتي عليهم
فترات يفقدون فيها الحكمة فى تصرفاتهم ، وأنا لا ألومه
لهذا ، ولكنه ارتكب ذنبا آخر . ذنبا أخطر .
ولا يمكننى أن أسامحه عليه .

• لماذا ؟ ماذا فعل ؟ أخبرنى أرجوك !

• لقد كنت أمينة معى يا مسز باوندرباى ، ولهذا
سأكون أمينا معك . اننى لا أستطيع أن أسامح توم
على سلوكه الفظ معك . يجب عليه أن يكون رقيقا
وعطوفا معك فى كل فعل أو قول أو حتى نظرة تصدر
منه على مدى عمره كله فأنت أفضل أصدقائه وحبك

١٩٨

ورعايتك له يفوقان الوصف . ولكن ماذا أعطاك .
أو حتى عرض أن يقدم لك ؟ لا شيء ! . على ما
اعتقد . اللهم الا كلمات قاسية وأسلوبا قبيحا .

بعد هذا الكلام بدت أشجار الحديقة وكأنها طافية
على سطح من الدموع أمام لويزا ، كانت عيناهما
تترقرقان بالدمع من أجل شيء ما دفين فى أعماقها .
ولكنها لم تهبط بعض السلوى .

واستكمل هارتهاوس حديثه قائلا :

• اننى شخص بوهيمى بما فيه الكفاية يا مسز
باوندرباى . ولم أحاول قط أن أكون طيبا أو شاكرا
ولهذا فأنا أعرف تماما أى شرك وقع فيه توم .
وسأحاول أن أساعده ليتخلص منه ، سوف أحاول
أن أمنعه من المغامرة .

قال هذا ثم نظر الى أعلى فوجد شخصا بالقرب
من البيت فاشار اليه وقال :

• لا بد أنه أخوك ، فلنذهب لنقابله .

١٩٩

فقال هارتهاوس :

• يبدو أن توم غير سعيد اليوم . ويجب علينا
ألا نثير قلقه .

• أنا أعرف كيف تفكر اختى يا سيد هارتهاوس ،
وهى تعرف أيضا .

• لا تصدقيه يا مسز باوندرباى ، فهو وان كان
غير مهذب . . الا ان بإمكانى أن أخبرك بفكرته عنك !

فقال توم :

• اننى أمتدحها ، عندما لا تهتم بالنقود .
وسأفعل هذا ثانية اذا كان لدى سبب وجيه . ولكن
هذا لا يهكم يا سيد هارتهاوس بالاضافة الى أنى تعبت
منه أيضا .

وصلوا الى البيت فستلخت لويزا بينما وضع السيد
هارتهاوس يده على كتف توم وقال له :

• توم . . دعنا نتمشى قليلا فأنا أريد أن أتحدث
معك !

• وجلسا على سور واطىء فى نهاية الحديقة .

• والآن يا توم . . ما المشكلة ؟

٢٠١

ساعدها على النهوض وتابطت هى ذراعه . كان
توم يضرب بعض الحشائش بعضا ، كانت فى يده عندما
رأهما صاح :

• أهلا ! لم أكن أتوقع وجودكما هنا .

فقال هارتهاوس :

• آه ! كنت تتوقع احدى شابات كوكساون
الجميلات . على ما اعتقد . وبالطبع خيبتنا رجاءك .

فرد توم :

• انى أرجو أن تقع فى حبى سيدة غنية جدا . .
حتى لو كانت عجوزا قبيحة . . فلن أفرط فيها أبدا !

• انك دائما تفكر فى النقود يا توم .

• ان كل انسان يفكر فيها . . اختى أيضا . .
اليس كذلك يا لوو ؟

فردت لويزا قائلة :

• لا يا توم ، ليس دائما .

٢٠٠

- أوه يا سيد هارتهوس ! انى مفلس كما انى واقع فى مشكلة .

- يا صديقى العزيز .. أنا أيضا مفلس .

- ولكنك لست متورطا فى أية متاعب ، ان أختى كان من الممكن لها أن تساعدنى .. لكنها لم تفعل .

- انك تنتظر منها الكثير . لقد أعطتك الكثير من المال ! فكم تحتاج الآن ؟

- فات الآوان يا سيد هارتهوس . لم أعد فى حاجة الى المال الآن . كان يمكن للو أن تحصل عليه من أجلى من زوجها باوندرباى العجوز . لقد تزوجته من أجلى ، ألم تفعل ؟ ولكنها رفضت أن تسأله شيئا من أجلى ، ولو كانت لطيفة معه .. لأعطاها كل ما تطلب ، ولكنها ليست لطيفة معه .. ولو حتى من أجلى !

كانت هناك بحيرة صغيرة بالقرب منهما فى الحديقة فأحس هارتهوس فجأة بأنه يود أن يقذف بهذا الجرو فيها . ولكنه احتفظ ببرود أعصابه وقال :

٢٠٢

- حسنا يا توم .. دعنى أحاول أن أكون المصرف الخاص بك

- المصرف الخاص بى ؟!

وانقلبت سحنة توم وشحب وجهه وقال :

- أرجوك .. لا تتكلم عن المصارف والمصرفيين !

فتعجب السيد هارتهوس ، لماذا يبدو على «الجرو» التعب والمرض هكذا ؟! ثم قال :

- اسمع يا توم .. عندما تقع فى أية متاعب . دعنى أعرف قبل أن تتفاقم . وسأحاول أن أدلك على طريق سهل للخروج منها .

- أوه ، أشكرك يا سيد هارتهوس انك صديق حقيقى ، وكم كنت أتمنى لو أنى عرفتك منذ زمن .

- ولكن .. يجب أن تفعل شيئا من أجلى يا توم كن أكثر عطفًا مع أختك .. دعها تشعر بوضوح أنك تحبها .

- سوف أفعل ، يا سيد هارتهوس ، وسوف أبدأ فى الحال .. هذا المساء .

٢٠٣

الفصل السادس عشر

لم يكن هارتهوس أقل سعادة فى صباح اليوم التالى ، فقد أشرقت ابتسامة لويزا الجميلة من أجله ، وكان لا يفتأ يردد بينه وبين نفسه : « ان عينيها أشبه بقطعتين براقنتين من الماس » !

وفى مساء أحد الأيام ، فى الساعة السادسة ، عاد هارتهوس من اجتماع جماهيرى ، وبينما هو يضع حصانه فى الاسطبل .. اذا بالسيد باوندرباى يظهر فجأة ويصيح :

- هارتهوس ! هل سمعت الأنباء ؟

٢٠٥

وبر توم بوعده فقد بادر أخته فى مساء ذلك اليوم وقبل العشاء ...

- أرجوك أن تسامحني يا « لوو » انك تعلمين انى أحبك ولم أكن أريد أن أبدو غير عطوف !

بعد هذا أصبحت تمنح ابتسامتها الجميلة للسيد هارتهوس أيضا . فقال جيم فى نفسه :

« هذا طيب .. طيب جدا . ان ما قدر له أن يكون حتما سيكون » !!

٢٠٤

فقال باوندرباى بضيق :

- أشكرك ! ربما أصبح المبلغ المسروق عشرين ألفا لو أن اللص لم يضطرب . اننى المصرفى الأول فى كوكتناون .. يا سيدى !

وهنا وصلت لويزا وبصحتها مسر سبارسيت وبينزر فاستائف باوندرباى كلامه :

- ها هى ابنة جراد جريند .. لقد سقطت مغشيا عليها عندما أخبرتها .

كان وجه لويزا يبدو شديد الشحوب ، فذهب إليها جيمس هارتهاموس ومد لها ذراعه لتتأبطه بينما أخذ باوندرباى - باستياء - ذراع مسر سبارسيت ومشى الجميع الى البيت بينما قال هارتهاموس :

- مستر باوندرباى .. كيف حدث هذا الشيء المروع ؟!

فصاح باوندرباى بغضب :

- كنت أحاول أن أخبرك ، ولكنك كنت مهتما

- أية أنباء يا سيدى ؟

- لقد سرق مصرفى !

- مستحيل !

- بل واقع ، لقد سرق الليلة الماضية - يا سيدى

- بواسطة مفتاح مصطنع .

- وكم يبلغ المبلغ المسروق ؟

- إن هذا لا يهم يا رجل ! إنه .. ليس كبيرا

فى الحقيقة . ولكن .. كان من الممكن أن يكون كبيرا جدا .

ولكن هارتهاموس أعاد السؤال فى اصرار :

- كم ؟

- حسنا ، ليس أكثر من مائة وخمسين جنيهها ،

ولكن الكم ليس مهما على الإطلاق ، فالشيء المهم هو ..

الواقع .. أن مصرفى قد سرق !

- أجل .. أجل بالطبع ، ولكنى سعيد لأن المبلغ

ليس كبيرا .

شيئا ما لم يقلق هذا الشخص .. بيتزر ! حتى السابعة صباحا ! عندما رأى باب خزانة توم المفتوح . كان القفل مكسورا والخزانة خاوية !

تلقت السيد هارتهاموس ثم تساءل :

- وأين توم الآن ؟ .

فاجابه السيد باوندرباى :

- كان يساعد الشرطة وهو الآن ينهى عمله اليومى

فى المصرف .

- وهل لدى الشرطة أية أفكار .. عن اللصوص ؟

فانفجر باوندرباى صائحا :

- بالطبع يا سيدى ! فعندما يسرق جوزيه

باوندرباى ، لا بد أن تكون لديهم أفكار ! وهى سر

فى الوقت الراهن ، ولهذا لا تتكلم عنها ، إنه ..

واحد من « الأبدى » .

فقال هارتهاموس بتكاسل :

- أرجو ألا يكون صديقنا بلاكيول !

فقط بكمية المال المسروق ! حسنا ، أمس مساء ، أغلقنا كل شيء كالعتاد . كان هناك الكثير من المال فى الغرفة المحصنة ، وكان لدى توم الصغير خزانة حديدية صغيرة فى مكتبه ، وهذه الخزانة كانت تحتوى على مائة وخمسين جنيهها ...

فقاطعته بيتزر قائلا :

- بل مائة وأربعة وخمسين جنيهها وسبعة شلنات

يا سيدى

فكاد باوندرباى أن ينفجر وصرخ فى وجه بيتزر :

- لا تقاطعنى يا بيتزر ! لقد سرقت لأنك كنت

تغطف فى نوم عميق ! المهم ، أغلق توم الصغير خزانته

على مبلغ مائة وخمسين جنيهها ثم راح بيتزر فى النوم

على سريريه الموضوع أمام الغرفة المحصنة . وفى الليل

جاء اللص - أو اللصوص - وكسروا الخزانة وسرقوا

المال . ثم أثار شيء ما اضطرابهم ففروا وتركوا المكان

عن طريق الباب الرئيسى الذى فتحوه بمفتاح مصطنع

وقد وجد المفتاح ملقى فى الشارع هذا الصباح . ولكن

- بل هو ، كنت قد حذرته من قبل ٠٠ عندما
كان يريد انهاء حياته الزوجية ٠ وحذرته ثانية في
الاسبوع الماضى ٠٠

فكالت لويزا في صوت خافت :

- لا يمكن أن يكون بلاكيول !

فصاح باوندرباى :

- اننى أعرف هؤلاء الناس ! أعرفهم جيدا ،
لقد غادر بلاكيول المدينة ، لقد ذهب ولا أحد يعرف
أين هو الآن ٠ تماما مثلما فعلت أمى بى عندما كنت
صغيرا ٠ ولكن ٠٠ ماذا فعل قبل أن يرحل ؟

ابتسم باوندرباى ابتسامة صفراء وقال :

- ان مسز سبارسيت تعرف الاجابة على هذا ،
وبينترز وبعض جيران المصرف ، كلهم يعرفون الاجابة
أيضا ٠

فتساءل هارتهاموس :

- ماذا فعل ؟

- أخذ يراقب المصرف ، ليلة بعد ليلة ! لقد مكث
بجوار البنك يراقب وينتظر
- ان هذه قريه ضده ٠

- ولكن بلاكيول ليس اللص الوحيد فقد كانت
هناك امرأة عجوز أيضا ، رآها الناس وهى تراقب
بيتى ومصرفى ، كانت تقف أمام بيتى عندما جاءنا
بلاكيول الاسبوع الماضى ، ثم رحل كلاهما معا ٠
وهنا تذكرت لويزا المرأة العجوز التى رأتها فى
غرفة بلاكيول ٠

وأضاف باوندرباى :

- يجب علينا أن نلتزم الهدوء ، ولكننا سنمسك
بهم ، لا يمكن أن يفلتوا من جوزيه باوندرباى !

فقال هارتهاموس :

- يجب أن يعاقبوا بكل قسوة القانون ٠ فمن
يسرقون المصارف يجب أن يتلقوا أقصى العقاب !

- من هناك ؟ من ٠٠ ! ما الخبر ؟

فكالت لويزا :

- توم العزيز ٠ اليس لديك ما تود أن تخبرنى
به ؟

- ماذا تقصدين يالوو ؟ ٠٠ هل كنت تحلمين ؟
- عزيزى توم ، لا تخفى عنى أى شىء ، فلن
يغير أى شىء من حبنى لك ٠٠ قل لى الحقيقة !
- ماذا تريدان أن تعرفى ؟

احتضنته لويزا بقوة وقالت له بحنان :

- لن ألوكم أبدا ، يا توم ٠ بل سأنقذك ٠٠ أيا
كان الثمن ٠ اليس عندك ما تود اخبارى به ؟ ٠٠ فقط
قل : « أجل » وسأفهم ٠٠

- أنا لا أفهم ما تقصدين يالوو ٠ انك فتاة شجاعه
وطيبة وتستحقين أن يكون لك أخ أفضل منى ولكن ٠٠
عودى الى فراشك الآن ٠٠ عودى الى فراشك !

تحول باوندرباى الى زوجته وقال لها :

- لوى ، ان هذه المشكله قد أرهقت مسز
سبارسيت ، اعملى على راحتها هنا ٠

فكالت مسز سبارسيت :

- شكرا جزيلا سيدى ٠ ولكن لا تؤرق نفسك
بشأن راحتى ٠ فان أى شىء سوف يريحنى ٠

وهكذا ، بدأت مسز سبارسيت تمارس نظرات
الشفقة على السيد باوندرباى وكم كانت سعادتها بهذا
وكانت تشاركه لعب الورق ، كما كانا يفعلان عادة ،
وكانت تصنع له مشروبات ساخنة خاصة فى الليل ،
كانت فى الواقع تتصرف كأم له ، ولم يكن يبدو على
لويزا أنها تلاحظ السيدة مطلقا ٠

عاد توم الصغير متأخرا هذا المساء ، كان الكل
تقريبا نائمين فيما عدا لويزا التى ما ان سمعت وقع
أقدامه على درجات السلم حتى توجهت بهدوء الى مخدعه ٠

كان توم على وشك أن ينام عندما لفته لويزا
بذراعها ، فتحرك محاولا النهوض وهو يقول فى فزع :

ولكنها سألته :

- هل اكتشفت الشرطة شيئا جديدا ؟
- لا .. فقط ما أخبرك به باوندرباى العجوز
- هل أخبرت أى انسان بأمر زيارتنا لغرفة بلاكبول ؟
- لا .. لقد طلبت منى أن أحفظ هذا الأمر سرا ..
- نعم .. فلم أكن أتصور وقتها أن هناك من يخطط لسرقة المصرف ..

فقال توم بسرعة وكأنه ينفى تهمة :

- ولا أنا ، فمن أين لى أن أتصور هذا ؟
- هل يجب أن تخبر أحدا ؟ هل يجب أن أخبر - أنا - أحدا بأمر تلك الزيارة ؟
- لا تسألينى. رأى يالوو .. ! افعل ما تشاءين فلم تكن الزيارة فكرتى ..

ثم نهضت لويزا وقالت بصوت حازم :

- توم .. هل تعتقد أن بلاكبول سرق المصرف ؟!

٢١٤

- لا أعرف .. ربما فعل !

- كان يبدو رجلا شريفا ..
- كان سعيدا أن أخذ منك نقودا ، لقد حادثه خارج الغرفة وقلت له أنه محظوظ بحصوله على هذين الجنيهين .. هذا كل ما أعرف .. ربما كان شخصا طيبا جدا ..

- اليس عندك شيء آخر تريد اخبارى به ؟
- لا شيء .. انك لا تريد منى أن أكذب عليك .. اليس كذلك ؟

- لا بالطبع .. لا أريد ذلك ..

- حسنا ، أذن عودى الى مخدعك الآن فأنسا متعب .. تصبحين على خير يالوو ..
- بعد ذهابها قام توم بسرعة وأغلق باب حجرته بالمفتاح ثم ألقى بنفسه على سريره وأجهش بالبكاء !!

٢١٥

ملابسسه ، وعند مغادرته المنزل تحضر له قبعته ،
وقد اعتادت أن تقبل يده وهي تهمس :

- انك عطوف ياسيدى ! عطوف جدا ..
- ولكنها - وبعد أن يفادر البيت - كانت تحرك قبضتها فى اتجاهه **وهي تقول بغضب :**
- أوه أيها الوغد ، انك تستحق هذه الزوجة التى لديك ، أنا سعيدة أنها كانت من نصيبك !

أصبح السيد باوندرباى ومديرة منزله أكثر قربا من بعضهما - حتى أكثر من ذى قبل - وترتب على هذا أن أصبحت لويزا أكثر قربا من السيد هارتهوس ..

وفى صباح أحد الأيام وفى الساعة العاشرة تماما حمل بيتزر رسالة من كوكتاون .. ان السيدة جراد جريند تحضر ويجب على لويزا أن تذهب الى ستون لودج فى الحال ..

كانت قد ذهبت الى بيت أبيها مرتين فقط منذ زواجها ، والسيد جراد جريند يكون عادة فى لندن ، كما أن مسز جراد جريند لا تحب الزيارات .. فى هذه

٢١٧

الفصل السابع عشر

استطاعت مسز سبارسيت أن تحتل مكان لويزا فى منزل السيد باوندرباى الصيفى .. وان كان ذلك لم يسبب أى قلق للويزا فقد اعتادت أن تقول **لمسز سبارسيت :**

- ان هذا لا يهم يامسز سبارسيت ، انك تستمتعين برعاية السيد باوندرباى !

وفى الحقيقة فقد كانت مسز سبارسيت ترعى سيدها باهتمام بالغ فى تقديم له وجباته وتنظف له

٢١٦

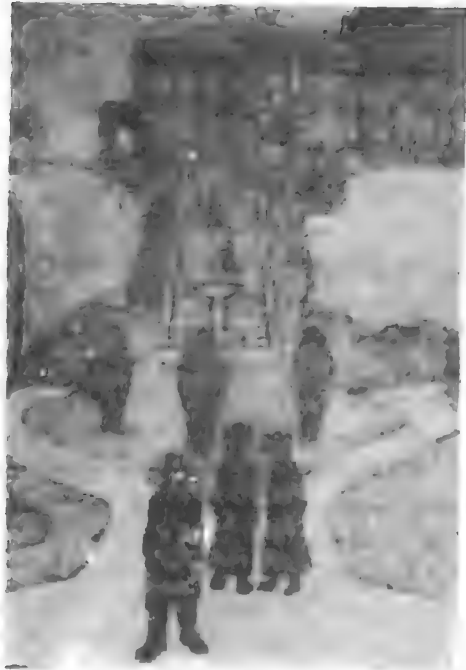
وازداد صوتها ضعفا وهي تقول :

- عندما تكون سيسي ممي ولكني لم استطع أن أتذكر اسمه .. ربما استطاع والدك بل يجب عليه .. لأجل الله .. أن يعرفه ..

ثم سكت الصوت للأبد .. ولم تتكلم مسز جراد جريند ثانية .. ماتت في عصر هذا اليوم قبل أن يعود زوجها .

ومكنت مسز سبارسيت مع عائلة باوندرباي لعدة أسابيع ، وأثناء وجودها معهم كانت تتخيل سلما كبيرا في نهايته حفرة مظلمة ينتظر فيها السيد هارتهوس ، بينما لويزا تهبط باستمرار في اتجاه .. حفرة العار ..

في إحدى الأمسيات الدافئة كانت لويزا والسيد هارتهوس يجلسان في الحديقة ، كانا يتناقشان في موضوع ستيفن بلاكيول الذي مازالت الشرطة تبحث عنه ، وكانت مسز سبارسيت تراقبها من نافذة مخدعها ولاحظت أن وجه السيد هارتهوس يكاد يلمس شعر



المرّة أحسّت لويزا أن المكان مختلف مما جعلها تشعر ببعض الغيرة فقد كان يملأ المكان مزيد من الحب أكثر مما عرفته في حياتها كلها .. لقد كانت كلمات سيسي جوب الحنونة ونظراتها الرقيقة هي التي غيرت « ستون لودج » .

منذ زواجها .. لم تتكلم لويزا مع سيسي جوب ولكن مسز جراد جريند ، والأطفال الأصغر من لويزا وتوم كانوا يحبون سيسي حبا جما ، والآن بلغت جين جراد جريند عشرة أو اثني عشر عاما من العمر وكان لوجهها زاسلوبها في الحياة جمال ورقة يعادلان ما لوجه وأسلوب سيسي .

كان صوت مسز جراد جريند ضعيفا ، وكانت معها رسالة للسيد جراد جريند طلبت من لويزا أن تعطيها له حينما يعود .. وقالت لابنتها في صوت أضعفه المرضي :

- لقد تعلمت الكثير في حياتك بالويزا وكذلك أخوك .. ولكن هناك شيئا فات على أبيك أو نسيه . وقد كنت دائما أفكر فيه ..

لويزا ، ولم يكن باستطاعة مسز سبارسيت أن تسمع ماذا يدور في محادثتهما ..

سألت لويزا جيم قائلة :

- ماذا تعتقد فيه ياسيد هارتهوس ؟
- انه يتكلم كثيرا .. كثيرا جدا ربما .
- لقد بدا لي رجلا شريفا ، ولكني لا أعرف شيئا عن الرجال .. أو النساء .
- عزيزتي لويزا .

وبدا هارتهوس يخبرها بأن الرجل كان غاضبا جدا وأنه وجه اللوم للسيد باوندرباي لما يحدث من متاعب في كوكتاون ولهذا ربما فكر بالفعل في سرقة المصرف .. بالإضافة الى أن سرقة المصرف وسيلة سهلة للحصول على المال . وظلت لويزا صامتة لبعض الوقت ثم قالت :

- اني أتذكر وجه بلاكيول وطريقته . ولا يمكنني في الحقيقة أن أوافقك على رأيك . ولكن عندما يتسنى

ل أن أوافقك فأننى سأشعر أن عبيءاً ما قد انزاح عن
قلبي

- ان توم الصغير .. يوافقنى . هل لنا ان
نتمشى قليلا ؟

وتمشياً داخل الحديقة .. كانت لويزا تتأبط
ذراعه ، لم تكن تعرف أنها تهبط الى أسفل .. تهبط
وتهبط وتهبط الى قاع السلم الذى تخيلته مسز
سبارسيت والمثى كانت تراقب وتنتظر أن تسقط
لويزا فى الجفرة

عادت مسز سبارسيت الى شقتها فوق البنك
ولكنها استمرت فى قضاء عطلات نهاية الاسبوع ببيت
السيد باوندرباى الريفى . وبمرور اسبوعين كان على
السيد باوندرباى أن يسافر فى عمل . وقبل أن
يسافر أكد على مسز سبارسيت ألا تتأخر عن قضاء
عطلة نهاية الاسبوع ببيته الريفى .

٢٢٢

- اننى معجبة به .. هل سيعود بسرعة ؟

- غدا مساء .. سوف أقابله عند المحطة
وسوف نتناول المشاء معا فى المدينة ولن يكون فى
البيت فى نهاية هذا الاسبوع .

فكانت مسز سبارسيت تبحث :

- لسوء الحظ .. يجب على أن أبقى هنا أنا
ايضا هذا الاسبوع .. فهل تتكرم وتحمل اعتذارى
للسيدة الرقيقة اختك ؟

- اذا تذكرت يامسز سبارسيت ، ولكن الأمر
فى الحقيقة لا يهم . فلويزا لن تفكر فيك الا اذا رأتك .
بهذه الكلمات الرقيقة ! شكر الجـرو مسز
سبارسيت على الشاى والطعام ..

وفى مساء السبت ، ارتدت مسز سبارسيت
قبعتها ووضعت شالا على كتفها ، وخرجت فى هدوء .
وفى محطة القطار شلت الشال فوق قبعتها . كان توم
الابن هناك ايضا ولكنه لم يلحظ مسز سبارسيت ،
وجاء قطار .. ثم قطار آخر ولكن السيد هارتهوس

٢٢٤

فكانت مسز سبارسيت بسعادة :

- أشكرك ياسيدي .. سوف أذهب بكل
سرور .

بالطبع لم تقل شيئا عن قاع السلم ..

غادر السيد باوندرباى كوكثاون فى صباح
يوم الجمعة وفى عصر نفس ذلك اليوم دعت مسز
سبارسيت توم الابن ليتناول الشاى معها . وعلى هذا
وفى الساعة الرابعة تماما أغلق صيارفة المصرف
خزاناتهم : هرول توم الى أعلى .. الى شقة مسز
سبارسيت .. فاستقبلته مسز سبارسيت مرحبة
وهى تقول :

- لقد فكرت أنك ربما تستمتع بوجبة صغيرة
ياسيد توم .. خبرنى كيف ترى حال السيد
هارتهوس ؟!

فاجاب توم وهو يأكل بنهم :

- أوه انه بخير حال .. على ما اعتقد ، فقد كان
متفيا عنا الايام القليلة الماضية .

٢٢٣

لم يصل بعد .. وأخيرا أحس بالتعب من الانتظار ..
فغادر المحطة .

وقالت السيدة سبارسيت لنفسها : « ان
هارتهوس قد دبر الأمر ! لقد أراد أن ينفى الأخ فى
المدينة .. ولهذا .. آه ، لويزا .. انها الآن فى قاع
السلم أو .. فى الجفرة ! لابد أن هارتهوس معها
الآن » .

استقلت مسز سبارسيت القطار التالى الذى
يفادر المحطة وبعد نصف ساعة عبرت حقل فى اتجاهها
للحديقة . كانت نوافذ البيت مفتوحة . فمشيت
مسز سبارسيت فى هدوء وحذر حول الحديقة تراقب
وتتسمع ولكنها لم تفادر منطقة الحشائش .

أخيرا سمعت أصواتا خافتة .. صوته وصوتها ..
لقد دبرا خطة لابعاد الأخ عن البيت ! وهما هناك
الآن .. كلاهما ! يجلسان على جذع شجرة ساقطة !
وبهدوء شديد اقتربت مسز سبارسيت ولكن ما هذه
الضوضاء ؟ حنان .. حنان هارتهوس ! لم يكن

اوقات عصيبة ٢٢٥

متجها للبيت بل كان يركبه متجها اليها ! فاخذت
مسز سبارسيت تتسمع الأصوات .

كان هارتهاموس يقول :

- ولكنك وحدك الآن يا أعز انسانة ماذا يمكنني
أن افعل ؟

فاجبت لويزا :

- ليس هنا ..

فلما هارتهاموس بذراعه وقال لها :

- أين اذن يا حبيبتي .

فقال مسز سبارسيت في نفسها : « آه ..
حبيبتي ! انك لا تدري بمن يراقبك ! » .

قالت لويزا :

- ليس هنا .. يجب أن تدعني وحدي هنا !

- عزيزتي لويزا .. يجب أن نلتقي في مكان ما .

٢٢٦

لقد امتطيت جرادى مسافة خمسين ميلا من أجلك ..
ولا أستطيع أن أتركك الآن .

فقال لويزا وهي تحاول أن تنهض واقفة :

- بل يجب عليك ..

ولكنه عندما بذراعه وقال لها :

- اننى أحبك يا لويزا .. ولا شيئا آخر يهم ؟

كان صوته يخفت أحيانا حتى يصبح همسا ..
وكان يملو أحيانا .

- لا يمكنك البقاء هنا بدون صديق .. لن اذهب

الا اذا أتيت معي !

أجابته لويزا . ولكن صوتها كان خافتا جدا ،
وعندما سمعت مسز سبارسيت كلمة « الليلة » علمت
أنهما يدبران للقاء الليلة ، كان هذا كل شيء بعدها
اطلق هارتهاموس المنان لجواده ولكن ليس الى
الاسطبل .

تبعته مسز سبارسيت لويزا الى البيت ، كانت
السما قد بدأت تمطر ثم ازداد سقوط المطر . فوقفت

٢٢٧

مسز سبارسيت تحت شجرة تفكر فيما عليها أن
تفعله .

فجأة ظهرت لويزا ثانية .. كانت ترتدى معطفا
فقال مسز سبارسيت في نفسها : « انها ستهرب
معها .. أوه يا عزيزتي .. لقد سقطت في الحفرة » .

أسرعت لويزا الى محطة القطار وتبعته مسز
سبارسيت خلال الحشائش المبتلة ، كان الظلام مخيما
والمطر يتساقط بقوة وغزارة . تولفت لويزا مرة ..
فتوقفت مسز سبارسيت أيضا .. ثم تابعت لويزا
المسير ، فحركت مسز سبارسيت قبضتها في الفضاء
وتبعته .

وفي المحطة غطت مسز سبارسيت قبعتها بشالها
المبلل وسافرت السيدتان الى كوكتاون في نفس
القطار .. وطوال الرحلة كانت مسز سبارسيت تحدث
نفسها قائلة : « يجب أن أتبعها » . لأعترف أين
سيلتقيان ؟ » .

كانت كوكتاون غارقة في نضار من الأمطار ،

٢٢٨

اندفع حوالى خمسين أو ستين من الركاب من المحطة
الى خط العربات في الخارج . ولكن لويزا لم تكن
هناك .. « انها مازالت في القطار .. انها ذاهبة
للمحطة التالية وسوف تقابله هناك » ، خطرت هذه
الأنكار لعقل مسز سبارسيت فجرت عاتدة للقطار
وأخذت تمسك ولكنها لم تلحق بالقطار ففضبت
وشعرت بخيبة الأمل .. ولم يكن في إمكانها أكثر من
أن تنفجر في البكاء وهي تندب حظها قائلة : « لقد
فقدتها ! » .

كان السيد جراد جريند في بيته في نهاية هذا
الاسبوع ، كان ينظر الى العاصفة من خلال النافذة
حينما انفتح باب الحجرة فاستدار بسرعة ليجد ..
لويزا والتي باردته قائلة وهي تخلع قبعتها .

- آيى .. يجب أن أتحدث اليك !

- لويزا ! ماذا حدث ؟ انك مبتلة جدا . هل
مشيت في هذا الجو العاصف ؟

- أجل !

٢٢٩

لم يبد عليها أنها لاحظت ملابسها المبتلة ، فقد تركت معطفها يسقط على الأرض .. كانت شاحبة وترتمش ، فاحس أبوها بالخوف عليها . وضعت يدها الباردة على ذراعه وقالت :

- أبى لقد رببتنى ودربتنى منذ صغرى ..

- أجل يالويزا .

- انك لم تمنحنى شيئا يجعل لحياتى مذاقا طيبا . أين الحب الذى يجب أن يملأ قلبى ؟ ان قلبى عبارة عن شيء فارغ .. هل تذكر آخر مرة تحدثنا فيها فى هذه الحجرة ؟

لم يكن السيد جراد جريند مستعدا على الإطلاق لسماع هذه الكلمات التى فاجأته بها ابنته فقال بدون تفكير :

- أجل يالويزا .

- كنت أتمنى ان تساعدنى وقتها . انا لا ألومك الآن ، يا أبى ، لا ألومك على أى شيء . فليس فى إمكانك أن تعلم الآخرين أشياء أنت نفسك لا تعرفها .

٢٣٠

ولكن آه لو أنك علمتنى الأشياء الصحيحة أو .. لو أنك لم تعلمنى شيئا .. لكأنت حياتى أفضل ولكنت امرأة أكثر سعادة اليوم !

بعد هذه الكلمات ، سقطت رأس السيد جراد جريند على صدره وقال فى حنان :

- يا طفلى المسكينة ، لم أكن أعلم أبدا أنك غير سعيدة .

- أما أنا فكنت دائما أعرف ، لقد تعلمت كل الأشياء الخاطئة يا أبى .. كان الشيء الوحيد الذى يربحنى هو .. فكرتى بأن حياة الانسان قصيرة جدا . ولكنك مازلت صغيرة يالويزا !

- أجل يا أبى ، فقد خططت ودبرت أمر زواجى .. اقترحت على زوجى ، وأنا وافقت عليه لعلنى أن لأشياء يستحق المجادلة . كنت أعرف أنى لا أحبه .. وكنت أنت أيضا تعرف .. وهو يعرف أنى لا أحبه . تزوجته لأنى كنت أأمل أن أستطيع مساعدة توم .. توم الذى قاسمى حياتى التعيسة . كان الشخص

٢٣١

تتساءل عما اذا كنت أحبه أم لا ؟ حسنا ، انى لا أعرف ولكن يمكننى أن أقول لك ببساطة انى ربما أحبه ..

سحبت ذراعيها من بين كتفى أبيها ثم .. وبصعوبة بالغة أنهت ما كانت تود أن تقوله :

- هذا المساء أخبرنى أنه يحبنى ، وهو يتوقع أن أذهب لمقابله .. وانى لا أعتقد أنى آسفة أو خجلى .. أنا أعرف شيئا واحدا .. هو أن تعليمك لى لن ينقذنى يا أبى . يجب أن تحاول انقاذى بطريقة أخرى ..

وكادت تسقط لولا أن أمسكها أبوها فصرخت صرخة مربعة وقالت :

- دعنى أسقط !

فأرقدتها أبوها على الأرض عند قدميه .. حيث شاهد كل كبريائه وكل حقائق أفكاره تتمرغ على الأرض !

٢٣٣

الوحيد الذى أحبه وأشعر بالشفقة عليه .. كان السبب وكان المهرب . ان هذا لا يهم الآن ولكنه قد يساعدك لتشعر ببعض الشفقة على توم يا أبى !

فاحتضن السيد جراد جرينة ابنته وقال لها :

- ماذا يمكننى أن أفعل الآن يا ابنتى ..

أطلبى منى أى شيء تتمينه ..

- اننى أحتاج الى مساعدتك يا أبى . لقد اتخذت صديقا .. انه يختلف عن أى رجل آخر عرفته فى حياتى . انه طيب القلب وله خبرة بالحياة . وهو لا يسعى لأن يصبح شخصا هاما . كما أنه يشاركنى فى بعض أفكارى ويظهر اهتماما بى يا أبى ..

فارتتمش السيد جراد جريند وهو يقول فى دهشة :

- اهتماما بك يا لويزا ؟!

- انه يفهمنى يا أبى .. يمكنه أن يقرأ أفكارى ، وقد استطاع أن يفهم بسرعة كل الحقائق المتعلقة بزواجى .. اننى لم أرتكب أى خطأ يا أبى ، ربما كنت

٢٣٢

وعطوفة ، وفى أثناء حديث الأختين دخل السيد جراد جريند فانسحبت جين فى هدوء ٠٠ ثم ٠٠ خيم الصمت والحزن على المكان . كان السيد جراد جريند يلوم نفسه على ما حدث للويزا من متاعب . وقال أنه كان دائما يعتقد ان أفكاره عن التربية أفكار صحيحة .

وبعد لحظات الصمت قال للويزا :

- ابنتى العزيزة ، هل يمكن لانسان أن يصبح حكيما بطريقتين مختلفتين ؟ بعض الناس يقولون هذا ٠٠ انهم يقولون أن بمقدور القلب أن يكون حكيما ٠٠ كالعقل تماما . لم أصدق هذا القول أبدا ولكن ٠٠ ربما كنت مخطئا .

كان شعر لويزا يفترش الوسادة فمد أبوها يدا حانية ومسح على شعرها واستأنف حديثه :

- اننى غالبا ما أكون متفيا هذه الأيام ، وان لدينا مدرسا هنا لتعليم الأطفال ، انهم يتلقون نفس التعليم الذى تلقينه تماما . ولكن بالطبع كانت سيسى معهم لوقت طويل . عزيزتى ٠٠ هل تعتقدين أن أختك

الفصل الثامن عشر

استيقظت لويزا فى الصباح التالى فوجدت نفسها فى حجرتها القديمة فى « ستون لودج » ٠٠ كانت سيسى والخادمة قد حملتاها الى سريرها ثم مكنت سيسى بالقرب منها جزءا من الليل .

وفى الصباح ٠٠ دخلت جين - أخت لويزا الصغيرة - وأخذت تتحدث مع أختها فسألتها قائلة : - هل أعجبتك حجرتك ؟ ان سيسى حرصت على أن تحفظها نظيفة ومرتبة منذ أن غادرت البيت .

كانت جين - حسب اعتقاد لويزا - بنتا رقيقة

النظرة ٠٠ نظرة اشفاق ٠٠ لم تنسها لويزا ولم تسامحها عليها والآن يبدو الأمر وكأن (ابنة المهرج قد زرعت الحب فى البيت و ٠٠٠) .

أحست لويزا بيد دافئة تلمس رقبتها . لم تفتح عينيه ولكنها أحست بالدموع فيها . ثم لامس خد ندى خدها فحاولت أن تستيقظ ٠٠ فوجدت سيسى تقول لها فى هدوء وعطف :

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك . هل يمكننى أن أبقى هنا ؟

- سوف تفتقدك أختى ، وانت كل شئ بالنسبة

لها

- وكما أتمنى أن أصبح شيئا بالنسبة لك .

فنهضت لويزا ووقفت بجوار سريرها وقالت

لسيسى :

- هل أرسلك أبى الى هنا ؟

- لا ٠٠ فقط قال أن بإمكانى أن أراك . ولكن ٠٠ ربما لا ترغبين فى بقائى معك .

الصغيرة جين قدر لها حظ من السعادة أكبر منك ؟

- يا أبى ٠٠ ان وجهها يعطيك الإجابة على هذا السؤال ، وهى ان قدر لها أن تتجنب الطريق الذى سرت فيه ، فانه يجب عليها أن تشكر ربها .

- بالرغم أنك يا ابنتى لم توجهى الى أى لوم الا أن من الواجب أن ألوم نفسى ٠٠

ثم أحنى رأسه وبدأ يتكلم فى صوت شديد الخفوت والهدوء :

- يبدو أن الحب قد غرأ أشياء كثيرة فى هذا البيت . ان هناك أشياء لا يستطيع العقل أن يفعلها بينما يقوم بها القلب فى هدوء . أليس هذا هو ما تعتقدين ؟

أغلقت لويزا عينيه ٠٠ ولما لم تجب ٠٠ انسحب أبوها من الحجرة بهدوء . وتذكرت لويزا يوم أخبروا والدتها بأمر زواجها . كانت سيسى تجلس بجوار سرير السيدة جراد جريند . وعندما سمعت ، رمقت لويزا عينيه فجأة بنظرة ٠٠ ولم تنسى لويزا أبدا هذه

فجئت لويزا على ركبتيها عند قدمي الفتاة
وامسكت بذيل ثوبها واخلفت تقول في استعطاف :
- أوه ، سامحيني يا سيسي ! ارحميني
وساعديني ! دعيني أوسد رأسي على قلبك المملوء بالحب !
فقالت سيسي وهي تبكي وتضم رأس لويزا
لصدرها :

- أجل .. أجل يا حبيبتي ضعي رأسك هنا !
كان السيد جيمس هارتهوس ينتظر - في فندق
كوكناون - على آخر من الجمر ، كان يتوقع رسالة من
لويزا ولكن لم تأت أية رسالة . اعتذر لتوم الابن عندما
قابله في يوم الأحد . كان يبدو على توم القلق كان
يشكو من أن بيتزر يتعقبه في كل مكان . كان السيد
باوندرباي لا يزال متغيبا وكانت مسز سبارسيت قد
غادرت المدينة سرا في عربة . ولا أحد يعرف الى أين
ذهبت .

في مساء الأحد أصبح هارتهوس قلقا هو الآخر .
كان خائفا أن يكون شخص ما قد اكتشف حقيقة ما بينه

٢٣٩

- وهل تحسبن بانى دائما اكرهك الى هذا الحد ؟
- أتمنى ألا يكون ، فانا دائما أحبك كثيرا .
حقا ان طريقتك ممى تغيرت قبل أن تغادري البيت .
ولكننى لم أدهش حقيقة ، فانت ذكية جدا بينما أنا
في منتهى الغباء ..

وتورد وجه سيسي واكملت :

- ولكننى لم أتالم من هذا .

بل تأملت سيسي ولويزا تعلم هذا فأخذت يد الفتاة
بين يديها وقالت :

- اننى مغرورة وقاسية .. غاضبة دائما وظالمة
لكل الناس حتى لنفسى .. ألا يجعلك هذا تكرهيننى ؟

- لا !

- اننى انسانة تصسة لانى فقط بدأت أفكر في
أبسط الحقائق وأحتاج لمن يعلمنى الاحترام والشرف
والحب ، أفلا يجعلك هذا تكرهيننى ؟

- لا !

٢٣٨

- أجل ، أنا
ثم قال في نفسه : « بالتاكيد هذه أجمل عيون
رايتها في حياتى » .

- ان رسالتى سرية يا سيدى . هل يمكننى أن
أعتمد عليك في حفظ السر ؟

- يمكنك .

- ربما قد خمنت من أكون ؟

فقال هارتهوس في نفسه : « لها صوت جميل
ايضا ! » ثم قال لها :

- اننى فى قلق منذ البارحة بشأن سيدة فاضلة
فهل أتيت من عندها ؟

- نعم !

- أين هى ؟

- فى منزل أبيها فقد أسرع الى هناك تحت
المطر والرياح ليلة الأمس . اننى أعيش هناك أنا ايضا

٢٤١

وبين لويزا ، ربما كان حتى باوندرباي يعرف السر .
كان جيم يتساءل هل سيكون عليه أن يصارع زوج
لويزا ! .. لم يكن جيم - فى الحقيقة - يجيد استعمال
قبضته ! .. حاول جيم ان يتماسك ويحفظ بهدو
« فلم تقلقه أية مصاعب أخرى » .. هكذا كان يقول
فى نفسه « فلماذا اذن تفسد هذه المشكلة الصغيرة عليه
عشاءه » . وبالفعل .. تناول عشاء جيدا فى حوالى
السادسة ثم بدأ يقرأ كتابا ثم .. وبعد نصف ساعة
حضر اليه عامل الفتنق وقال :

- سيدة شابة تأمل فى رؤيتك يا سيدى ؟

- رؤيتى ؟ !

ثم نهض بسرعة واقفا وقال :

- دعها تدخل يا رجل !

فدخلت الغرفة امرأة شابة لم يرها هارتهوس
من قبل . كانت بسيطة فى ملابسها هادئة ورائعة
الجمال . ثم قالت :

- هل أنت السيد هارتهوس ؟

٢٤٠

وقد قضيت الليلة بجانبها . وتستطيع أن تتأكد
يا سيدى أنك لن تراها ثانية .

فأخذ السيد هارتهوس نفسا عميقا وحاول أن
يفكر بذهن صاف . هذه الفتاة صغيرة جدا وهى تقول
الحقيقة كما تفهمها . وهو متأكد أنها لا تكذب ، فقال :

- اننى حقيقة فى ذهول .. هل أعطتك السيدة
هذه الرسالة الياثسة لى ؟

- لا .. انها لم تفعل !

- اذن ، فربما لن تكون هذه هى رغبتها ؟ وربما
سأراها ثانية ؟

- ليس هناك أدنى أمل . يجب أن تصدق هذا
يا سيدى !

- يجب أن أصدق ؟! ولكن ماذا ان لم أكن أستطيع
أو لم أكن أريد أن أصدق ؟

- لن يغير هذا من أن هذه هى الحقيقة . ليس
هناك أى أمل مطلقا !

٢٤٢

فايتسم السيد هارتهوس لها ولكن ابتسامته
ضاعت . فقد كان عقله يحلق فى مكان بعيد عنه
ثم قال :

- حسنا ، يبدو أنك واثقة من الأمر تمام الثقة .
ولكن السيدة الفاضلة لم ترسلك وهذا أيضا صحيح .
اليس كذلك ؟

- ان حبنى لها هو الذى جاء بى الى هنا . وجبها
لى يساعدنى فى توجيه خطواتى . فانا أعرف قلبها
وعقلها .. وقد أخبرتنى ببعض الأمور عن زوجها .
أوه ، سيد هارتهوس لقد أخبرتك أنت أيضا .. لأنها
وثقت بك .

وأحس هارتهوس بأن نوعا من الألم قد مس
المكان الذى من المفروض أنه به قلبه وقال بلهجة ذات
مفزى :

- ان من يتقون بى .. ربما كانوا غير حكماء .
ان والد هذه السيدة « آله » وإخاها « جرو » وزوجها
« دب » ، وإذا كنت قد تسببت لها فى أى فىمكننى

٢٤٣

أن أقول - فقط - اننى لم أكن أرغب مطلقا فى إيذاؤها .
والآن أيتها السيدة الشابة ، أنت تلومينى . انك
تعنين بكلامك أنى قد فعلت شيئا خاطئا وانى أقبل
هذا منك .. وان كنت لا أقبله من أى انسان آخر .
لا أعتقد أن أسلوبى فى الحياة سيتغير ولهذا يجب على
أن أتعود الوضع الجديد .. فربما لن أرى السيدة
ثانية .

فردت عليه سيسى برقة ولكن بحزم :

- سيد هارتهوس ، يجب عليك أن تصلح ما
أفسدت .. يجب أن تغادر هذه المدينة فى الحال ولا
تعود إليها ثانية . ان هذا ليس تضحية كبيرة عليك ..
وهو لن يكفى ولكنه - على أى حال - شئ أفضل من
شئ .. كما أنه ضرورى جدا . وسينقى سرا بيننا
يا سيد هارتهوس . غادر كوكناون الليلة ولا ترجع
أبدا !

- ولكن .. ولكننى هنا فى مهمة شعبية ، أنا

٢٤٤

أعرف أن هذا غباء ولكننى سأرشح نفسى للبرلمان وهذا
واقع !

- يجب أن ترحل الليلة يا سيد هارتهوس .
- فكرى فى العار ! ..

ثم صمت برهة وعاد يقول :

- اذا رحلت .. فهل سيبقى السبب سرا ؟

- سوف أبقى بك يا سيدى ، وسوف تثق بى ..
أخذ هارتهوس ينمشى بى الغرفة لعدة دقائق
مستغرقا فى التفكير ثم عاد ثانية لسيسى وقال وهو
يضحك :

- ان ما قدر له أن يكون حتما سيكون . وهذا
الأمر سيكون على ما أعتقد . لقد وجهت الى ضربة موجعة
يا سيدتى الشابة ، فهل لى أن أعرف اسم عدوى ؟

- اسمى يا سيدى ؟

- أجل ، أنه الاسم الوحيد الذى أود معرفته
الليلة .

٢٤٥

- سيسى جوب !

- هل أنت قريبة السيدة ؟

- لا . انما أنا ابنة مهرج السيرك . وقد تركنى أبى فاشفق على السيد جراد جريند . وأنا أعيش فى بيته منذ ذلك الوقت .

ثم غادرت الغرفة ..

فالتقى السيد هارتهاموس بجسسه فوق المقعد وهو يقول لنفسه : « هذا يكمل حلقة المار .. ابنة مهرج سيرك وتلف جيسس هارتهاموس حول اصبعها الصغير ! »

ثم جلس وكتب رسالة صغيرة لآخيه قال فيها :

« اننى مللت الحياة فى كوكتاون وقد قررت أن أسافر الى مصر . سأكتب لك ثانية من القاهرة . جيم »

ولم تمض الساعة الا وكان السيد هارتهاموس فى القطار المتجه الى لندن ..

الفصل التاسع عشر

عرفت مسز سبارسيت أن السيد باوندرباى فى لندن ، فسافرت اليه فى صباح الأحد وقابلته فى فندقه . قالت أن زوجها قد هرب بصحبة السيد هارتهاموس .. وعاد المصرفى ومدبرة منزله الى كوكتاون فى مساء هذا اليوم . واتجه مباشرة الى «ستون لودج» واندفعا الى غرفة مكتب السيد جراد جريند .

وبادد باوندرباى توم جراد جريند قائلا :

- والآه يا توم جراد جريند .. اسمع فان لدى مسز سبارسيت ما تقوله لك عن ابنتك الذكية .

٢٤٧

٢٤٦

فأصاب الذهول السيد جراد جريند وقال مخاطبا باوندرباى :

- لقد كتبت لك بالأمس يا باوندرباى ! أنت لم تتسلم رسالتى بالطبع ! ..

فصرخ باوندرباى :

- ان هذا ليس وقت الرسائل يا سيدى ! قولى له يا سيدتى .. قولى له ما أخبرتنى به !

كان الاعبياء قد أصاب مسز سبارسيت من جراء الخوض فى العاصفة فلم تستطع الا أن تخرج بعض الأصوات الواهنة غير المفهومة مما أثار غضب السيد باوندرباى فصرخ :

- اسمع يا توم جراد جريند لقد استمعت مسز سبارسيت لمحادثة بين ابنتك وصديقك جيمس هارتهاموس .. لقد سمعت أن ..

٢٤٨

فقاطعه جراد جريند :

- لست بحاجة لترديد ما سمعته ، فأنا أعرفه !

فصرخ باوندرباى فى دهشة

- تعرفه ! وهل تعرف أين ابنتك الآن ؟

- بالتأكيد ! انها هنا .. !

- هنا ؟!

فقال جراد جريند بنفاد صبر :

- باوندرباى .. أرجوك لا تصرخ ثانية . لقد هرعت لويزا الى هنا بمجرد أن استطاعت التخلص من هارتهاموس . ثم جاءت الى البيت . رغم العاصفة الشديدة ، وهى الآن مريضة وملازمة للفراش منذ ليلة أمس

فاستدار باوندرباى غاضبا الى مسز سبارسيت وقال لها :

- والآن .. أيتها السيدة .. فاننا نكون سعداء باع اعتذارك . ان كل قصتك كانت محض هراء !

٢٤٩

— بالتاكيد ! اننى لا أؤمن بأى طريقة فى التربية
.. خلاف الكلمات يا سيدى . لكلمات قوية وعصا
قاسية !

— ان هذا مستحيل فى التعامل مع امرأة شابة
يا باوندرباى !!

فتساءل باوندرباى بغضب :

— ما هو هذا المستحيل ؟

— أوه ان هذا لا يهم الآن ، يجب علينا أن نحاول
اصلاح الضرر الواقع . وأنا أحتاج مساعدتك فانا جد
تعبس لما أصاب لويزا ..

— لن أعذك بشئ يا جراد جريند ..

— كل ما أرجوه هو .. أن تترك لويزا وحدها
لفترة . الرعاية والحب سوف يعطيان أفضل النتائج ..
لقد كانت دائما أفضل أطفالى .

فاحمر وجه باوندرباى وقال :

— هل تريد أن تستبقيها هنا ؟!

٢٥١

فقالت مسز سبارسيت باكية :

— سيدى .. سيدى ، اننى مريضة ولا أستطيع
أن أقول شيئا الآن .

— حسنا يا سيدتى .. ان العربية ما زالت
بالباب ، عودى الى شقتك . وانعمى بحمام ساخن !
.. ثم اذهبى الى فراشك !

قال باوندرباى هذا ثم أخذها من يدها الى الخارج
حيث تقف العربية ، وبعد دقيقة عاد بمفرده وقال
لجراد جريند فى خشونة :

— والآن — جراد جريند — أرجوك اشرح لى كل
شيء .

— أخشى .. أننا لم نستطع أبدا أن نفهم لويزا .
— تكلم عن نفسك فقط يا جراد جريند ، فانا كنت
دائما أفهمها .

— اذن لنقل .. انى لم أفهمها ، وقد ارتكبت
أخطاء جسيمة فى تربيتها .

٢٥٠

يجب على ابنتك أن تعود الى بيتها .. بيتى . سوف
أنتظرها غدا ظهرا . واذا لم تأت .. يمكنها — اذن —
أن تبقى بعيدة للأبد .
— أرجوك يا باوندرباى .. بل انى أتوسل اليك
أن تفكر ثانية .

— لا يا سيدى ، ان جوزيه باوندرباى لا يتنازل
عن رأيه . ان هذا هو كل ما أود أن أقوله لك . تصبح
على خير .

وعاد السيد باوندرباى الى بيته فى مدينة
كوكتاون .. ولم تأت لويزا فى ظهر اليوم التالى .
وفى الظهر تماما أعطى باوندرباى أمرا لخدمه بأن يجمعوا
ملابس لويزا فى صناديق وأرسلها الى ستون لودج .
وبعد عدة أيام .. عرض السيد باوندرباى بيته الريفى
للبيع . وقد أعطاه هذا التغيير الحديد فى حياته مزيدا
من الوقت للعمل .

كان قد عقد عزمه على العثور على من سرقوا مصرفه
ولم يكن مسموحا لرجال الشرطة بالراحة من الجهد

٢٥٣

— يمكننا أن نعتبرها فى زيارة لنا . ان سيسى
أعنى سيسيليا جوب — تفهم لويزا . ولويزا تثق فيها .

— اسمح يا جراد جريند ، اننى جوزيه باوندرباى
.. وجيه كوكتاون ، وكون ابنتك زوجتى .. يعتبر
شرفا لا تستحقه ! .. ما الذى ترجوه من هذه الزيارة؟

— لقد أخبرتك .. ان لويزا غير سعيدة ، وأرجو
أن تعمل على اسعادها .. هل هذا كثير ؟! انك تكبرها
سنا بكثير .. وأنا قد قبلت ..

فقاطعه باوندرباى غاضبا :

— أنا أعرف هذا .. وتلك مشكلتى وحدى .

— لقد ارتكبتنا — كلنا — أخطاء يا باوندرباى .
ويجب علينا أن نفعل شيئا لتصحيحها . وسيكون
عظما منك لو أنك قبلت خطئى .

— أنا لا أوافق يا جراد جريند ، ولكنى لن
أتشاجر معك . ولكن .. يجب على صديقك هارنهاوس
أن يغادر كوكتاون قبل أن أصادفه فى طريقى .. بالطبع

٢٥٢

المتصل حتى يقبضوا على اللصوص .. لم تكن هناك
أبناء عن ستيفن بلاكبول ، كما أن لغز المرأة العجوز
بقي لغزا .. وأعطى السيد باوندرباي وعدا بأن يمنح
عشرين جنيهًا لمن يده له مكان بلاكبول .

كانت راشيل في شدة القلق .. أما سلاكبريدج -
الرئيس المحترف لتقابة العمال - فكان سعيدا فإذا
ثبت أن بلاكبول لص .. فان سلاكبريدج يصبح على
حق في كل ما قال !

عندما سمعت راشيل بأمر الجائزة .. ذهبت الى
بيت السيد باوندرباي .. ثم .. وفي إحدى الأمسيات
وصل ثلاثة زوار الى ستون لودج .. السيد باوندرباي
راشيل وتوم الابن أخذتهم سيسي الى حجرة السيد
جراد جريند ، حيث كانت لويزا تتحدث مع والدهما .
ووقف توم الابن في ركن مظلم بجوار باب
الحجرة .. وبدأ السيد باوندرباي الكلام قائلا :

- أرجو ألا أكون قد أزجعتك .. هذه المرأة ..
(وأشار الى راشيل) وقد تكلمت معي .. وتوم

٢٥٤

جراد جريند - ابنك - رفض أن يعلق بشيء ! ربما كان
باستطاعة مسز باوندرباي أن تخبرني بالحققة .

وقفت راشيل امام لويزا وقالت :

- لقد رأيتني مرة من قبل يا سيدتي الشابة ..
فسعل توم الابن .. فاعادت راشيل كلامها :
- لقد تقابلنا من قبل أليس كذلك ؟
فسعل توم ثانية ..

فاجابت لويزا :

- نعم التقينا .
- هل يمكن أن توضح لي سبب لقائنا .. ومن كان
حاضرا في هذا اللقاء ؟
- لقد التقينا في غرفة ستيفن بلاكبول .. كان
هذا بعد أن غادر بيت السيد باوندرباي .. وقد رأيتك
هناك مع بلاكبول .. كما كانت هناك امرأة عجوز -
أيضا - كما أن أخي توم كان بصحبتى .
وهنا تسأل باوندرباي قائلا وموجها الكلام لتوم
الابن :

٢٥٥

- آوه .. نعم ، يا سيدتي .. يبدو أنه يجب على
أن أصدق بعض الهراء الذي أخبرتنى به ..

فاخذت راشيل تبيكي وهي تقول للويزا :

- ان ستيفن بلاكبول رجل شريف .. ولكن ..
كل من في المدينة يظنون أنه سرق المصروف .. ان هذا
غير صحيح ! أنا أعرف أنه غير صحيح ..

فقالت لويزا :

- اننى فى غاية الأسى

فقالت راشيل :

- انه سيعود ثانية .. غدا أو بعد غد .. كان عليه
أن ينتحل اسما آخر ليجد عملا .. ولكنى كتبت اليه
وسيعود وسوف يثبت أنه برى ..

فضحك باوندرباي وقال :

- خبرينا باسمه الجديد ! خبرينا أين هو ؟
فاستمرت راشيل فى البكاء **وقالت :**
- ان هذا ليس عدلا ، ان ستيفن لم يرتكب ذنبا !

- لماذا لم تستطع ان تقول هذا يا توم ؟

فقال توم :

- لقد وعدت أختى ألا أفعل ..

استأنفت راشيل حديثها قائلة :

- سيدتي الشابة الطيبة ، هل يمكنك أن تقول
لماذا جئت لغرفة ستيفن بلاكبول ؟

- كنت حزينة لأجله ، وأردت أن أقدم له بعض
المساعدة ..

فقال باوندرباي فى غضب مكتوم :

- شكرا .. سيدتي ! أطرد الرجل .. فتذهبين
أنت لتقديم المساعدة له !

وتساءلت راشيل :

- كم عرضت عليه يا سيدتي .. ؟
- أربعة جنيهات .. ولكنه أخذ جنيهين فقط ..
فنظرت راشيل فى كبرياء الى السيد باوندرباي ،
فصاح باوندرباي :

٢٥٦

٢٥٧ اوقات عصية

إذا أخبرتك بمكانه . إذن لذهب أحدهم وأحضره .
ألا تفهم ؟ ليس هناك داع لاستيادته . سوف يأتي
بنفسه .

بعد دقائق معدودة غادر السيد جراد جرينده وتوم
الابن (ستون لودج) وطوال هذا الحوار السابق ،
لم يتفوه السيد جراد جرينده أو سيسي بكلمة واحدة .
والآن توجهت سيسي بالجنديت الى راشيل قائلة :

— هل يعلم ستيفن بسبب ظن الناس به السوء ؟
— لقد أخبرته أن هؤلاء الناس رأوه يراقب
المصرف . أنا لا أعرف لماذا ذهب الى هناك ، فلم يكن
هذا المكان قريبا من بيته .

وعرضت سيسي أن تذهب الى بيت راشيل في
اليوم التالي لترى ما إذا كان ستيفن قد عاد ، على أن
تحمل الأخبار الى ستون لودج . ووافق الجميع على
هذه الخطة . ثم عادت راشيل الى بيتها .

وعندما رحلت راشيل سال جراد جرينده ابنته
بنبرة حنون قائلا :

٢٥٨

غاية الاثارة . يكاد أن يكون مريضا . لم يكن يستطيع
الكف عن قضم أطافره . وعاد الرجال بليون ستيفن ،
وقيل أن بلاكيول لا بد قد تسلم رسالة راشيل وفر
هاربا في الحال . ولا أحد يعرف الى أين ذهب .

ومر أسبوع ولم يظهر ستيفن ، فبدأ على توم
(الابن) أنه قد وجد قدرا جديدا من الشجاعة . كان
يقول للناس « بالطبع بلاكيول هو اللص ، إذا لم يكن
هو اللص فلماذا إذن لم يعد ؟ » .

ولكن أين بلاكيول ؟ ولماذا لم يعد ؟

أخذت هذه الأسئلة تطن في أذن توم (الابن)
طوال الليل !

٢٦٠

— لويزا . عزيزتي . هل تعتقدين أن بلاكيول
قد سرق المصرف فعلا ؟

— لا يا ابني أنا واثقة من أنه رجل شريف .

— وهكذا تعتقد المرأة أيضا . ولكن هل يعرف
اللس الحقيقى ماذا يقول الناس ؟ أين هو اللص
الحقيقى ؟ من يكون ؟

لاسلطت لويزا تلك النظرة التي أطلقت من عيني
سيسي . كانت تعرفها من قبل — نظرة حب ورتاء .
ثم جلست لويزا بجوار مقعد أبيها .

ومر اليوم التالي . والذي يليه ولم يحضر
بلاكيول . وفي اليوم الرابع ذهبت راشيل الى بيت
باوندراى ثانية . وبالرغم أنها ما زالت تثق ثقة تامة
في ستيفن فقد أعطت اسمه الجديد وعنوانه للسيد
باوندراى . كان ستيفن يعيش في مدينة تبعد عن
كوكتاون ستين ميلا .

وتم ارسال الرجال ليحضروا ستيفن بلاكيول .
بينما بقي توم (الابن) ملاصقا لباوندراى . كان في

٢٥٩

الفصل العشرون

لم يعد ستيفن بلاكيول . ومازالت الشرطة
تبحث عنه . كانت سيسي تذهب لبيت راشيل كل
مساء تقريبا ، ولكن لم تكن ثمة أخبار جديدة .
أصبحت راشيل سعيدة لأنها أخيرا عثرت على صديقة
تثق بها وبستيفن . وقد حملت سيسي الحب والسلوى
معهما وسرعان ما صارت المرأتان صديقتين حميمتين .
وبعد هذه المقابلات ، كانت راشيل تمشي مع سيسي
نصف طريق عودتها للبيت في كل ليلة وفي إحدى
المرات شاهدتها مسز سيارسيت وهما تمشيان معا
في الشارع .

أوقات عصية ٢٦١

فى اليوم التالى - أثناء وقت الغداء - زارت مسز سبارسيت راشيل فى بيتها وسألتها بعض الأسئلة التى حاولت راشيل أن تجيب عليها . ثم فى صباح اليوم التالى - الجمعة - غادرت مسز سبارسيت كوكتاون بالقطار فى ساعة مبكرة .

وفى مساء نفس اليوم ذهبت سيسى الى بيت راشيل ، وكالعادة .. لم تكن هناك أية أخبار عن ستيفن . ولكن الفتاتين تجاذبتا أطراف الحديث لبعض الوقت ثم توعدتا على اللقاء صباح الأحد . فقد فكرت سيسى أن راشيل ربما تحتاج لنزهة فى الحلاء ، فالفهوا الطلق سيكون مفيدا لها . وفى الساعة غادرت سيسى وبصحبتها راشيل بيت راشيل وسارتا فى اتجاه ستون لودج ..

لا يد أن القطار قد وصل الآن .. لأن هناك عربات كثيرة تجرى فى الشارع تحمل القادمين من أو الذهابين الى المحطة وفى سيرهما مرتا - راشيل وسيسى - ببيت السيد باوندرباى حيث توقفت عربة

٢٦٢

امام الباب ونزلت منها مسز سبارسيت التى ما ان رأت الفتاتين حتى صاحت :

- هذه فرصة عظيمة ! يجب أن تريا هذا !

ثم صرخت امرأة :

- انزلى .. انزلى والا ألقينا بك خارج العربة !

ونزلت من العربة سيدة عجوز أمسكت مسز سبارسيت بتلابيبها وقالت :

- لا تمسوها .. أنا التى أمسكت بها ، أدخل يا سيدتى .. الى البيت والا .. والا دفعناك للدخل بالقوة !

ودخلت مسز سبارسيت والسيدة العجوز وأناس آخرون كثيرون الى بيت السيد باوندرباى لقد تعرفت راشيل على السيدة ! .. انها « مسز بيجلر » ! وتذكرت راشيل أسئلة مسز سبارسيت .

قالت مسز بيجلر بعض الكلمات بصوت خافت ، وردت عليها مسز سبارسيت قائلة :

٢٦٣

- سيدى .. انها المرأة العجوز !

- ان هذا الأمر يعينى وحدى . فلماذا تدسين نفسك فيما يعنى عائلتى فقط ؟!

فارتدت مسز سبارسيت على المقعد بعنف وأخذت تفرك يديها ، بينما كانت مسز بيجلر ترتعش وقالت وهي تبكى :

- عزيزى جوزيه .. ولدى العزيز ! لم تكن غلطى ، وقد أوضحت للسيدة عدة مرات أنك لن تكون راضيا عن هذا ولكنها أجبرتني على المجيء الى هنا ..

فصاح باوندرباى :

- ولماذا تركتها تاتى بك الى هنا ؟ لماذا لم تقيد بها او تحطى أسنانها ؟

- يا ولدى الحبيب .. كانت تنوى استدعاء الشرطة ولم أكن أريد هذا يا جوزيه ، لقد بررت بوعدى لك ، وعشت فى هدوء وأصبحت أفتخر بك من بعيد .. كنت أحضر لكوكتاون مرة أو مرتين فى العام .. لكنى لم أخبر أحدا بأنى أمك !!

٢٦٥

- لا ! لن أدعك تذهبين !

ثم نادى بأعلى صوته :

- يا سيد باوندرباى ! .. يا سيد باوندرباى !

وما أن دخل السيد باوندرباى الى القاعة حتى أصابه الذهول .. هو والسيد جراد جريند وتوم الابن اللذين كانا بصحبته .

وبعد لحظات قال السيد باوندرباى :

- مسز سبارسيت يا سيدتى .. ماذا يحدث هنا ؟!

فاجابت مسز سبارسيت بتفاخر :

- سيدى لقد وجدت الشخص الذى تبحث عنه .. صديقة بلاكبول ، لم تكن تريد المجيء .. لكن ... ثم دفعت مسز سبارسيت مسز بيجلر للامام ، فاحمر وجهه باوندرباى ثم تحول الى اللون الأزرق ثم صاح :

- مسز سبارسيت ! ماذا يعنى هذا ؟!

٢٦٤

فردت عليه مسز بيجلر قائلة :

- لا يا سيدى لم يفعل . لم تكن أغنيا .
أعرف . . . فقد مات أبوه . . . زوجى عندما كان جوزيه
فى الثامنة من عمره وقد عملت وكافحت حتى يتسنى
لابنى أن يلتحق بالمدرسة . . . كنت أعانى ولكنى كنت
مستمتعة بالمعانة . . . لأنى كنت أحبه . . . ثم . . . وجدت
عملا له وقد أخذ يعمل هو الآخر بجهد واجتهاد . . . والآن
ها هو قد أصبح رجلا غنيا من الوجهاء وانى لفخورة
به . . .

واستأنفت مسز بيجلر الحديث قائلة :

انه لم ينسنى أبدا - يا سيدى - كان يدفع لى
ثلاثين جنيتها فى العام . . . تكفينى وتزيد عن حاجتى
ومازال لدى (دكان) صغير فى القرية وقد وعدته أن
أبقى هناك . . . فقد أراد جوزيه ألا أتدخل فى حياته وقد
حفظت عهدى معه لدرجة أنى لم أتحدث اليه طوال
عشرين عاما ، وما كنت لأحضر الى هنا لو لم تحضرنى

٢٦٧

لأن له أما رقيقة حنون وليس بالرجل « الذى
صنع نفسه بنفسه » انه ليس الا وجهها سمينا . . .
أحمر . . . غاضبا و . . . كذابا ! حتى مسز سبارسيت
بدت وكأنها أكثر أمانة من باوندرباى أغنى أغنياء
كوكناون .

لم تعد مسز بيجلر الآن سرا على أى انسان وهذا
يعنى أن فرصة ستيفن بلاكيول أصبحت أفضل ولكن
لويزا وسبسى . . . ورأشيل أيضا . . . كن يعانين من
مخاوف رهيبة . . . فنفرض أن ستيفن بلاكيول استطاع
أن يثبت براءته . . . إذن لا بد أن شخصا آخر هو المذنب
والدليل - دليل البراءة - يشير الى المذنب الحقيقى ،
وكانت رأشيل تعتقد أن هذا الشخص - المذنب
الحقيقى - قد منع عودة ستيفن . كانت تخشى أن يكون
شخص ما قد قتل ستيفن .

أما مخاوف لويزا وسبسى فكانت ترتبط - سرا -
بتوم (الابن) . ولم تبرأ أى منهما على الحديث عن
أفكارهما ، وان كانت كل منهما تعرف ما يدور فى

٢٦٨

كان كل من بالقاعة ينصتون لكل كلمة ، بينما
كان باوندرباى يتحرك من ركن الى ركن فى غضب
عنيف ومسز سبارسيت غارقة فى البكاء . . .

ثم قال جراد جريند موجها الكلام لمسز بيجلر :

- ان ما تقولينه هراء يا سيدتى . فوالدة السيد
باوندرباى كانت قد ألقت به فى الشارع وتركته منذ
أن كان طفلا صغيرا . . . كانت فى منتهى القسوة معه
. . . وقد استطاع هو أن يبنى نفسه بنفسه !

- أنا كنت أما قاسية ؟! أنا ألقيت بابنى فى
الشارع ؟! . . . سامحك الله يا سيدى . . . ان لك خيالا
شريرا !

لم يكن السيد جراد جريند يتخيل أى شيء . . .
لهذا دهش . . . هل كان باوندرباى يكذب كل هذا الوقت
على كل الناس ؟!

ثم قال جراد جريند بعد برهة :

- حسنا ، ألم يعتنى ابنك بنفسه منذ وقت
مبكر جدا فى حياته ؟

٢٦٩

هذه السيدة ، ولهذا . . . أنت على خطأ يا سيدى ! فانا
كنت دائما أما طيبة لابنى وهو سيخبرك بهذا بنفسه !
صفق كل من بالقاعة وحيوا مسز بيجلر على هذه
الخطبة الطويلة . لم يقل السيد جراد جريند شيئا بينما
كان وجه باوندرباى محمرا جدا . . . كان غاضبا لدرجة
بدا معها أنه على وشك الانفجار ثم حرك ذراعه فى الهواء
وهو يصيح :

- اذا كنتم قد استمتعتم جميعا الى ما يكفى من
أسرارى ، فربما . . . تتكرمون بالخروج من بيتى . فلست
أنوى ايضاح أو تفسير أى شيء . . . كذلك توم جراد
جريند سيصاب بخيبة أمل . ولكن يمكن أن أقول لكم
شيئا واحدا . . . ان أمى لم تساعد أى انسان على سرقة
مصرفى . . . والآن . . . أسعد الله مساءكم جميعا !!

قال باوندرباى كلماته الأخيرة وهو يفتح الباب
ليخرج الجميع . . .

ومأ كادت تمر الساعة الا وكان كل من فى
كوكناون قد علم بالحقيقة . . . وهى أن باوندرباى كذاب

٢٦٨

رأس الأخرى . فى هذه الأثناء بقى توم بالقرب من باوندرباى وستيفن بلاكبول لم يعد بعد !

فى يوم الأحد ، خرجت سيسى وراشيل من محطة القطار فى الريف . كان المكان بين كوكتاون ومنزل السيد باوندرباى الريفى . كان يوما جميلا مشرقا من أيام الحريف . أخذتا تتمشيان عبر الحقول فى طريق طويلة مظلمة . كان الريف لا يزال أخضر ناضرا وقد حاولتا أن تتجنبا المباني الحالية السوداء التى كانت تتبع مناجم الفحم القديمة . وفى الظهيرة جلستا تستريحان .

وقالت سيسى :

— ان المكان هادئ جدا هنا ، فالناس لم يعودوا يستعملون هذه الطرق الآن .

وبينما هى تقول هذا لاحظت سيباجا قديما محطما على بعد عدة خطوات منها فنهضت لتلقى نظرة عليه
وهى تقول :

٢٧٠

وأخذت راشيل تبكى وتقول فى ذهول :

— آه يا ربى . . انه تحت . . هناك ! تحت !
وأخذت تبكى وتصرخ ولم تستطع سيسى أن تفعل شيئا لتوقفها . . وأخيرا قالت سيسى :
— عزيزتى راشيل يجب علينا أن نفكر فى ستيفن ، فإذا كان هنا فى هذه الحفرة . . فربما كان لا يزال حيا ويجب أن نحصل على مساعدة بسرعة .
— نعم . . نعم ! نحصل على مساعدة !

فتوجهت سيسى الى حافة الحفرة وأخذت تتنادى :

— ستيفن . . ستيفن !!

نادت عشرين مرة ولكن . . لا مجيب !

ثم قالت :

— لا يجب أن نضيع أى لحظة أخرى . يا راشيل . . يجب أن نتحرك فى اتجاهات مختلفة لنبحث عن من يساعدنا . أخبرى كل من تقابليه بما حدث . يجب أن يحضروا معهم حبالا طويلة ، يجب أن ترسل رسالة

٢٧٢

— ان شخصا ما قد كسر هذا السياج حديثا . .
أوه راشيل تعالى ! هناك قبعة ملقاة على الحشائش !
ارتعدت راشيل عندما التقطت القبعة من الأرض .
نظرت داخلها فرأت الاسم ستيفن بلاكبول !

فكانت فى ذهول خالطه الحزن :

— آه . . رجلى المسكين ! أيها الرجل المسكين !
لقد قتل ! لا بد أنه يرقد فى مكان ما قريب من هنا
يا سيسى .

ونظرتا حولهما دون أن تتحركا . لم يستطيعا رؤية شئ آخر يخفى ستيفن . **فكانت سيسى :**
— سوف أسير للدخل قليلا .

ولم تكده تتحرك سيسى للأمام حتى صرخت راشيل صرخة عالية وأمسكت سيسى بكلتا يديها وجذبتها للخلف . . فإمامها كانت توجد حفرة عميقة سوداء تكاد تكون مختفية بين الأعشاب الكثيفة .
الطويلة !

٢٧١

لكوكتاون كما أننا بحاجة لطبيب . اسرعى الآن يا راشيل ! فكرى فى ستيفن . . عودى أنت من نفس الطريق وسأسير أنا للأمام . .

كانت الساعة الخامسة مساء عندما تم اخراج ستيفن — المكسور جسمه — من الحفرة . كان لا يزال حيا . . ولكن فقط لا يزال حيا .

فى هذا الوقت وصل السيد جراد جريند ولويزا وأيضا وصل السيد باوندرباى وبصحبه الجرو ومعهم الطبيب . أعطى الطبيب لستيفن بعض الأدوية القوية وما هى ألا بضع دقائق حتى كان ستيفن قادرا على الكلام .

كان يسير من مكان عمله فى طريق كوكتاون متوجها الى بيت السيد باوندرباى الريفى . . انه لم يسرق المصروف ولم يستطع أن يصبر حتى يثبت هذا . . ولذلك عبر هذه الضاحية الخطرة فى الليل فسقط فى هذه الحفرة .

٢٧٣

.. بالنظر طويلا الى النجمة .. رأيت الامور أكثر وضوحا .

ثم تحول الى لويزا وقال :

- لقد فهمتك الآن أيتها السيدة .. جزاك الله كل خير .. هلا تكرمت وحملت منى رسالة لأبيك ؟

كانت لويزا ترتعش وهي تجيبه قائلة :

- انه هنا !

ثم نادى أباهما .. فجاء السيد جراد جريند ،

فقال له ستيفن :

- سيدى ، ليس لدى الكثير من الوقت .. يجب

عليك أن تثبت أنى رجل شريف .. اننى أترك سمعتى بين يديك .

فأحسن السيد جراد جريند بالقلق وسأله قائلاً :

- وكيف أستطيع أن أفعل هذا ؟

- ابنك سيخبرك يا سيدى .. اننى لا أنهم أى

انسان ، ولا أقول كلمة واحدة ضد انسان .. ولكنى

٢٧٥

انحنى عليه راشيل وقالت :

- انك تمنانى الما عظيما يا رجل الحبيب .. انه

لأمر لى غاية السوء ؟

- لم يعد هكذا الآن يا راشيل .. كان رهيبا ..

ولكنه لم يعد الآن .. انها لحبطة .. كل شىء لحبطة ..

أنظرى الى السماء يا راشيل .. هل ترين هذه النجمة ؟

نظر الجميع نحو السماء وشاهدوا نجمة من نجوم

السماء اللامعة .. واستأنف ستيفن الكلام :

- كنت أنظر اليها من مكانى فى قباع الحفرة

يا راشيل .. وكنت أحس أنها تخبرنى بالحقيقة ..

عندما تسلمت رسالتك يا راشيل تذكرت السيدة

الشابة وأخاها ..

هنا تحركت لويزا للأمام ومالت برأسها بالقرب

من ستيفن الذى استنرد :

- وطننت أنهما دبرا الأمر معا .. كنت أهول

لأوجه اليهما الاتهام عندما سقطت فى هذه الحفرة ، ثم

٢٧٤

وابنك كنا قد تحادثنا ذات ليلة .. كان يعرف لماذا كنت

انتظر كل مساء أمام البنك .. انه يعرف وأرجو أن

يحكى لك .

فى هذه اللحظة تركت سيسى المجموعة الصغيرة

المتحلقة حول ستيفن وذهبت الى حيث كان يقف السيد

باوندرباى وتوم (الابن) تحت الظل وهمست بشىء ما

فى اذن توم !

بعد هذا صنع الرجال الذين أنقلوا ستيفن سريرا

من أجله ولفه الطبيب بالأربطة والقطن وأرقده فوق

المحفة - التى صنعها الرجال - ثم حمله أربعة رجال

وساروا به عبر الطريق .. وبينما هم سائرون به

قال ستيفن موجها حديثه لراشيل :

- راشيل .. حبيبتي .. أمسكى بيدى ..

يمكننا الليلة أن نسير معا بدون خجل .

- سوف أحضنها يا ستيفن وسأبقى بجانبك

- وهبك الله حبه ! من فضلكم هل يتكرم أحدكم

بوضع الفطاء على وجهى .. ؟!

٢٧٧

٢٧٦



٢٧٩ منظر السوق شمال المدينة

الفصل الحادى والعشرون

لم يشاهد توم جراد جريند (الابن) فى كوكتاون
ثانية . ففى مساء يوم الأحد ذاك . . أخذ توم بنصيحة
سيبى - التى همست بها فى أذنه - وسافر فى الحال
الى ليفربول على بعد ثلاثين ميلا من كوكتاون . وهناك
عثر على سيرك سلىرى وأعطى للسيد سلىرى رسالة من
سيبى .

وبناء عليها لم يوجه السيد سلىرى أية أسئلة
« لتوم ، فقط قال بشهامة :
- لقد كان السيد جراد جريند كريما مع سيبى

٢٧٨

- لماذا سرقت المصرف . . ان هذا الخبر قد
هدنى من الاعياء .

- كان يجب عليك أن تتوقع هذا ، لقد جعلتنى
أعمل فى مصرف ، وعندما يعمل خمسون رجلا فى
مصرف فلا بد أن أحدهم سيسرق أمواله . . هذه واحدة
من أشهر حقائق الواقع التى علمتها لنا .

لقد رددتها على سمعى مئات المرات . . كنت
دائما تجد الراحة مع حقائق الواقع . . حسنا . .
تمتع بهذه الحقيقة اذن !

أحنى السيد جراد جريند راسه وقال :

- يجب أن ترحل عن انجلترا الليلة . .

وأعطى لتوم ظرفا مغلقا وأكمل حديثه :

- ها هي التذكرة وبعض النقود . أرجو أن تفعل
شيئا طيبا فى حياتك القادمة . لقد كانت جريمتك
مروعة وكانت لها نتائج مروعة ، ولكن . . هات يدك
يا ولدى المسكين . . اننى أدعو الله أن يسامحك كما
سامحتك .

ولهذا . . فأنا على استعداد لتقديم العون لابنه .

وهكذا أخذ توم زى مهرج ولون السيد سلىرى
وجهه بالألوان البيضاء والحمر والسوداء ، وأصبح
على توم أن يعاون المهرجين فى عملهم .

وبعد يومين وصل السيد جراد جريند وبصحبة
لويزا وسبى الى السيرك وشرحوا خططهم للسيد سلىرى
. . يجب أن يهرب توم الى أمريكا ، وثمة سفينة
ستغادر ليفربول فى هذه الليلة ووافق السيد سلىرى
على هذه الخطة ثم أحضر توم الى داخل الخيمة وتركه
مع عائلته وحدهم .

دفن جراد جريند وجهه بين يديه حينما رأى ابنه
فى زى المهرج . واجهش بالتبكا . وأخذ يقول :

- لماذا !؟ . . لماذا !؟ فعلت هذا ؟

سأله توم بغباء :

- فعلت ماذا ؟

كان توم يبكي ففتحت لويزا له ذراعها لتحتضنه
ولكنه صرخ قائلاً :

— لا ! لا ! لا ! لا أريد أن ألمسك ! كل هذا
كان بسببك ، فأنت لم تهتمي بأمرى أبدا !
فانفجرت لويزا فى البكاء .. وفى هذه اللحظة
دخل سليرى وقال :

— يجب أن نسرع فإمامنا ستة أميال لنصل الى
المرفأ والسفينة لن تنتظر من أجلنا ..

وخرج الجميع ليتوجهوا الى المرفأ ولكن .. فجأة
خرج رجل من خلف الخيمة .. انه بيتزر
كانت ترتسم على وجهه ابتسامة خيثة وقال :

— لقد تبعتم من كوكناون الى هنا ، واستمعت
الى حديثكم . أعتذر لافساد خطبكم .. فالسيد توم
(الابن) يجب أن يأتى معى . كنت دائماً أعتقد أنه هو
الذى سرق المصرف والآن تأكدت أن ظنى كان فى محله .

أخذ السيد جراد جريند يهتز ويتوسل الى بيتزر :
— بيتزر .. أليس لديك قلب ينبض بالدفع ؟

٢٨٢

— أجل يا سيدى ان البشر الأحياء كلهم لهم
قلب ينبض بالدفع .. هذه حقيقة معروفة جداً ،
فحرارة الجسم ..

فقاطعه السيد جراد جريند صائحاً :

— أجل .. أجل يا بيتزر ولكن .. ألا تشعر
بالرثاء لجالنا ؟ هل تفكر من أجلنا أم من أجل بعض
المكافأة .

— رثاء .. لا .. فالرجال العقلاء لا يهتمون
بغير الحقائق المادية ياسيدى . اننى لا أكره السيد توم
ولكننى سأحصل على مكانه بالمصرف بعد أن يقبض
عليه .

— هل يمكننى أن أعرض عليك شيئاً ؟ كم من
المال ؟ ..

— أعتذر لقطع حديثك ياسيدى . اذا أنا قبلت
المال .. فسأكون شريكاً فى الجرم ، أفضل أن أحصل
على مكان السيد توم (الابن) فى المصرف ..

٢٨٣

— أوه ! يا سيدى ! اننا بالتأكيد نطيع
القانون ، ولكن .. لا اظنك تمانع فى أن أصطحب معى
كلبى . فالحصان لن يذهب الى أى مكان بدون الكلب
ولهذا .. يجب أن نأخذ معنا .

فقال بيتزر :

— نعم ، يمكنه أن يساعد فى حراسة هذا اللص
الكذاب .

ووصلوا الى العربية فصعد توم وبيتزر والكلب ،
وقال سليرى لبيتزر :

— اسمح لى بدقيقة يا سيدى ، سأخذ السيد
جراد جريند والسيدتين الى خيمتى حيث ينتظران
العربة .

وفى الخيمة شرح سليرى بسرعة ماينوى أن
يفعله :

— يمكنك أن تعتمد على ياسيد جراد جريند ،
فقد دربت هذه الحيوانات جيداً بنفسى ، فالحصان

٢٨٥

كان السيد سليرى يستمع للحديث بقم مفتوح
من الدهشة ، ثم ابتسم خفية لسيسى وقال :

— حسناً ، ياسيدى . ان هذا الأمر لجده خطير
.. اننى لم أكن أعرف أن ابنك قد سرق مصرفاً !

أما الآن فأنا أوافق هذا الشاب المذهب ، اننى
أسف لهذا ولكن ابنك يجب أن يعود الى كوكناون .

ثم توجه السيد سليرى بالكلام الى بيتزر قائلاً :

— اننى لا أستطيع تقديم الكثير ياسيدى ، ولكن
حصانى وعربتى جاهزين وسوف أوصلك والسيد توم
(الابن) الى محطة القطار وسوف أمر بتجهيز عربة
للسيدتين ومعهما السيد جراد جريند وسوف
يتبعوننا .

فقال بيتزر :

— هذا حسن ياسيدى ، لم أكن أعرف أن رجال
السرك يلتزمون بالقانون !

٢٨٤

لن يذهب للمحطة فسيصاب بالجنون في مكان ما وسوف ادعى أنني لا أستطيع السيطرة عليه وعندما تقترب من المرفأ سيقذف بابنك في العربة ، وسيمسك الكلب بيتزر من بنطلونه وبالطبع لن أستطيع تقديم أى مساعدة وسيكون ابنك على ظهر السفينة قبل أن تبهر .

وبعد هذا أحضر السيد سليرى ثيابا مناسبة لنوم (الابن) وبعض الزيت ليعسل عن وجهه الأصباغ ، كان الظلام قد خيم ساما على المدينة عندما بدأ سليرى يقود العربة ..

كان الجميع - السيد جرارد جريند ولويزا وسيسى - يشعرون بالامتنان والشكر لسليرى وقد قضوا تلك الليلة في فندق .

عاد السيد سليرى ومعه كلبه في الرابعة صباح اليوم التالى . في هذا الوقت كان توم (الابن) في عرض البحر في طريقه الى أمريكا .. بينما كان بيتزر يسير في طريقه الى كوكتاون .. وحيدا !

٢٨٦

أقام السيد جرارد جريند حفلا في الفندق لكل أفراد السيرك كانت سعادة سيسى عميقة لرؤية أصدقائها القدامى .

أثناء الغداء همس السيد سليرى في أذن السيد جرارد جريند قائلا :

- لقد مات والد سيسى ياسيدي . لا أعرف متى مات ؟ ولا أين ؟ ولكنى متأكد أنه مات .

- وكيف عرفت ؟

- أقول لك يا سيدى ، كان لدى والدها كلب يدعى (ميرى ليجز) هذا الكلب عاد الى السيرك منذ أربعة عشر شهرا . كان في حالة سيئة .. مكفوف البصر .. لابد أنه مشى مسافة طويلة . حسنا ، لقد أخذ يشم كل الأطفال الموجودين بالسيرك .. كان يبحث عن طفلة يعرفها ، فلما لم يجدها جاء الى وبعد خمسة دقائق أخرى .. مات . والآن ياسيدي ، هذا الكلب ما كان ليترك جوب لو أن جوب كان حيا .

٢٨٧

أصبح السيد باوندرباى أكثر غضبا . وفي أحد الأيام بعد مرور خمس سنوات وبينما هو يشى في طريقه الى البنك .. انفجر فيه ما في داخله فسقط ميتا في الشارع . حقا انه لم يلهى بنفسه من الشارع ، ولكنه وللحقيقة أيضا .. مات فيه !

السيد جرارد جريند : تغير السيد جرارد جريند . وأخذ ألحظ والأمل مكان الوقائع والأرقام في حياته كما أن أطفاله الثلاثة الصغار قد نعموا بحياة أسعد من لويزا وتوم وكتب السيد جرارد جريند خطابا عاما أثبت فيه براعة ستيعن بلاكبول وبين فيه أن ابنه توم هو المذنب الحقيقي ..

والآن ترى ماذا خبا المستقبل « للويزا » ؟

أصبحت حياتها لطيفة .. هادئة وتلقت رسالة من توم ، طلب منها أن تسامحه وقال لها في رسالته : « اننى لأضحى بكل كنوز الدنيا من أجل أن أمتع عينى برويتك ثانية . »

٢٨٩

فقال جرارد جريند :

- اعتقد أن هذا غير صحيح ، فسيسى مازالت تحب أباهما وتأمل في عودته ، انها لم تشك لحظة في مدى حبه لها .

- دعها تحيا مع الأمل ياسيدي . فسيجعل حياتها أسعد كثيرا !

والآن .. ترى ماذا حدث لبقية أبطال القصة ؟

واذا كان في مقدورنا أن ننفذ بصرنا خلال حجب الغيب لنطلع على المستقبل ، فماذا يمكننا أن نرى ؟

السيد باوندرباى : ظل السيد باوندرباى غاضبا من مسز سبارسيت ، وهى نفسها بدأت تملة ، ولم يمض أسبوعان حتى أرسلها الى عائلتها الغنية ، وقبل أن ترحل قالت له :

- سيدى .. يجب أن تعمل في سيرك ، فانك حقا ماهر ! ولهذا فالسيرك هو مكانك الصحيح ! وبينما أصبحت مسز سبارسيت أكبر سنا

٢٨٨

كل مكان .. على الأرضيات ومعلق على الجدران ..
الحب والسعادة والخيالات الجميلة ..

حتى السيد جراد جريند حاول أن يستمتع بكل
هذا !

ولويزا .. لويزا عشقت كل هذه الأشياء ..

لكنه لم يرها ، ولم تره ثانية ، فقد مات توم
محموماً في المستشفى !

هل تزوجت لويزا ثانية ؟ هل قدر لها أن تنجب
إطفاء ؟

الاجابة هي .. لا

اذن هل كان لها أصدقاء ؟

الاجابة هي .. نعم .. فقد كانت هناك راشيل
التي عملت في مصنع النسيج بقية عمرها كانت طيبة
وحنون ، كما أنها أصبحت مع مر الأيام أكثر سعادة
فهى المرأة الوحيدة فى كوكتاون التى وثقت
وأشفقت على زوجه ستيفن بلاكبول .

وكانت هناك أيضا سيسى .. وأطفال سيسى
السعداء بالقرب منها . كان بيت سيسى مكانا رائعا
حقا .. تملؤه الزهور وتزين جدرانها اللوحات الجميلة
ومكتبته تحوى قصصا رائعة .. الجمال والخيال فى